

مقدمة الحضارات الأولى

مقدمة الحضارات الأولى

غوستاف لوبون

ترجمة: مُحَمَّد صادق رستم

الطبعة: ٢٠٢٣



العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

لوبون ، غوستاف - ترجمة: محمد صادق رستم - مقدمة الحضارات الأولى

– الجيزة – أزهى ،٢٠٢٢

١٧٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٤ – ٨٦٣٢١ – ٩٧٧ - ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٠٥٩٤ / ٢٠٢٢

غوستاف لوبون

مقدمة الحضارات الأولى

ترجمة

محمد صادق رستم

كلمة المترجم

كتاب "الحضارات الأولى" للفيلسوف الاجتماعي الدكتور "غوستاف لوبون" مجلد ضخم عظيم، ضم في الحقيقة سبعة كتب: الكتاب الأول يتضمن بسط المؤلف المدقق للتطور في التاريخ، وكيفية نشوء الأسرة والعادات والأخلاق والنظم والمعتقدات واللغات والقوانين وما إليها، وترقيها. والكتاب الثاني يتضمن كيفية رقي الشعوب إلى الحضارة، وعلل الرقي والانحطاط، وهذا ما ترجمناه كله للقراء باسم مقدمة الحضارات الأولى فشمل النظريات التي طبقها المؤلف بعد ذلك في سائر أجزاء هذا الكتاب على الحضارات القديمة في الشرق وفسرها بها حضارة فحضارة.

ويرى القراء أن الدكتور فسر التاريخ، وجلا حكمته بقوانين علم النفس ومبدأ النشوء والارتقاء، ولخلو العربية – فيما نعلم – من مثل هذه البحوث رأينا أن نعرب كتابه هذا للناطقين بالضاد، فبدأنا بالمقدمة، وسيتلوها – قريباً إن شاء الله – كتاب (الحضارة المصرية القديمة)، واذا فسح الله في الوسائل ترجمنا للقراء بعد ذلك (الحضارة الآشورية) و(الحضارة الفينيقية) في كتاب ثالث على حدة لما بين مصر وسورية والعراق من الروابط الوثيقة والأواصر العديدة من قديم الزمان.

وقبل أن نشرع في طبع ما ترجمناه – بهمة صاحبي المطبعة السلفية ومكتبتها – وتقبلهما الكتاب بقبول حسن بالرغم من كساد سوق الكتب العامية؛ أرسل العاجز كاتب هذه الأسطر إلى ابن عمه في باريس عثمان

رفقي رستم الموجود بها لإتمام فن العمارة، راغباً إليه أن يحصل من جناب الدكتور الفيلسوف على إذن بالطبع والنشر، فورد كتاب هذا العالم الجليل، وفيه الإذن مشفوعاً بما يعجز القلم عن شكره من التشجيع. قال حفظه الله:

أأذن بالترجمة والطبع ممتناً، وقد سبق للمرحوم فتحي زغلول باشا – أيام كان وكيلاً للحقانية المصرية – أن ترجم بعض تواليفي. وأكون ممتناً إذا أعلمتموني ماذا صار إليه أمر كتابي حضارة العرب.

وتفضلوا بقبول تحياتي الممتازة؟

إننا وكل من نطق بالضاد مدينون بالشكر للعلامة لوبون، ولا أنسى هنا أيضاً صديقي المهذب فؤاد بك المرابط فمن مكتبته بحلوان عرفت كتاب الحضارات ونزعت بي الهمة إلى ترجمته. أما الترجمة فكما يرى القارئ صورة من الأصل جهد الطاقة كما تتطلب الكتب العلمية. والله المستعان.

محمد صادق رستم

القاهرة

الكتاب الأول

في تطور الحضارات

وتولد النظم والعادات والمعتقدات وترقيها
عند الشعوب الأولى المتمدينة

الفصل الأول

التطور في التاريخ



١

كان من حظ القرن القرن التاسع عشر ، عصر البخار والكهرباء، الذي ولد كثيراً من العجائب، وغير معتقداتنا، وخلق عالماً من الأفكار والآراء الحديثة، أن يشهد أيضاً حدوث المكتشفات العجيبة في كافة فروع التاريخ. ولا بدع فالسائح – الذي يزور خفايا المدن العتيقة الدارسة في آسيا القديمة وأرض الفراعنة و بقايا الا ثار الضخمة الرائعة التي تبهر النظر وتشهد بأوائل عهد الإنسان – لا يشك في أن هذا الانسان قد ترك وراءه ماضياً طويلاً قبل أن نظم (هوميروس) قصائده وقبل أن قامت على ضفاف النيل (الأهرام) العظيمة وبجانبها (أبو الهول) بتبسمه ذاك الخالد.

ودلت كتب الأمم جميعاً على أن الناس إلى عهد حديث ما كانوا على شك في رد أصل الدنيا وخلق الإنسان الى تاريخ لا يزيد عن خمسة آلاف سنة أو ستة آلاف فقط، ولم يخطر ببال أحدهم أن ذلك الإنسان المتوحش العاري كان يجد ويكدح في استجماع أصول ترقية الآجل من قبل زمن التاريخ بأكثر من مئة الف سنة، وأنه قطع المراحل الشاسعة وقضى الأزمان

الطوال قبل الرقي إلى الحضارة، بل لم يكن القوم يومئذ على شيء من العلم فيما يختص

مصر التاريخ نفسه إلا بمنقولات غامضة مبهمة احتفظ بها كتاب العهد العلمي العتيق، فبني على هذا أن أدواراً تاريخية برمتها تعد بعدة آلاف من السنين كانت محجوبة في ظلمات المجهولات تقوم بها الأمم والمدن والإمبراطوريات في التاريخ مراعاً وتمضي سراعاً، ولم يكن الإنسان يتبين شيئاً جلياً من وسط مجاهل الدنيا القديمة إلا إذا وصل إلى عصور اليونان والرومان وهي تكاد تعد من العصور الحديثة غير أن العلم الحديث وإن عاش طويلاً بالتقاليد التي لم ترزق من الحظ أكثر من القيمة الأثرية لم يلبث أن خالجته الشكوك في أمر هذه التقاليد ومن ثم أخذ في البحث عن الحقيقة وبفضله أزيل الحجاب الكثيف الذي كان يخفي عنا وجه التاريخ فبدا لأعيننا المنبهرة بغتة ما لم نكن نتوقع، فإذا ماض طويل ودنيا من التمدين، وأجناس ولغات لم نكن على شيء من معرفتها، وإذا بهذا العلم قد جاء من باطن المسكونة ببقايا الصناعة من مثل ما اتخذ الآباء الأولون من السلاح والمساكن وغيرها فاستدللنا بكل هذا على أن الأرض وما عليها قد تغيرت كل التغير منذ سكنها الأوائل، ونشأ للعلم فرع جديد هو فرع (ما قبل التاريخ) الذي بحث ونقب في أصول المدنيات وترقيها فأظهر أن كتبنا القديمة في حاجة إلى إعادة الوضع، وأن كل ما ورد من التعاليم المتفرقة في العهد القديم والكتابات العتيقة عن قدماء الشرق كالمصريين والأشوريين والفينيقيين والبابليين وغيرهم هي غاية في النقص وقلة الكفاية. وكشف لنا عن عصور طويلة في التاريخ وعن إمبراطوريات قوية وجماعات

بشرية راقية ومدن زاهرة جهلها المؤرخون وأخذ اليوم يستنطق شهود القرون الخالية ويستحكي أبا الهول والأهرام حكايات الأجيال التي أقامتها ويسأل المدافن والعمد. والقصور والمعاهد عن المدهش من أقاصيص الغابرين، ويشق صحاري (العراق) عن أبنية عجيبة وعواصم كانت مهد سادات آسيا فتقوم من باطن الثرى نافية عن نفسها ثياب السافيات تحدث بخيلاء عن مجدها الغار وتتكلم بأحرفها الغريبة المنقوشة على جدرانها كما يحدث القارئ كتاب من حبيب كتب الغداة بلغة معلومة معتادة. فما أعجب طول أناة الإنسان وعبقريته في اكتشاف هذه الغرائب، وحبذا ما لم يفتنا من اختبارات العصور الخوالي، فلم يذهب هباء ما عالجه ملايين الناس منذ القدم من ضروب التفكير والكد والاصطناع والكفاح والكتابة عدة آلاف من السنين، فوقفنا على تاريخهم وأعمالهم وآرائهم، وتتبعنا سير رقيهم.

ومن ذا الذي لا يعد اليوم الذي نجح به (شمبوليون) بعد جهد عشرين عاماً في حل رموز الهيروغليفي المنقوش على معابد مصر وقد خفي معناه زهاء ألف سنة، أو اليوم الذي أخرج فيه (بوتا) و(لايار) من صحاري (أشور) مدناً وقصوراً عظيمة بهت لها الناظرون، أو اليوم الذي تمكن فيه (رولنسون) و (اوبورت) من تفهم أسرار الكتب التي رقدت في زوايا النسيان من مكاتب قصور نينوي ثلاثة آلاف من السنين، من ذا الذي لا يعد هذه الأيام من أيام الإنسانية كاليوم الذي بدت فيه لكولمب من أقصى زرقة البحار الشواطئ السندسية للقارة المجهولة، فاكتشف هذا السائح دنيا جديدة وإنسانية حديثة هي أمريكا.

إن علماء العصر الحاضر قد وجدوا عوالم قديمة، وبعثوا إنسانية كانت طي الخفاء، وأخرجوا من النسيان بنور العلم الحديث ماضياً كاد يذهب به العفاء في ظلمات العصور؛ فبعثت الشعوب من مراقدها كما كانت عليه في عهودها السالفة، ورأينا آثارها وفنونها، وقمنا شهداء على ما عانت من آلام وأوتيت من افراح وفهمنا أفكارها وعواطفها ومعتقداتها، وفقهنا بذلك تطور الحوادث في الرقي، وأدركنا مقدار بنوه الحال للماضي وأبوته للمستقبل.

٢

لم تكن النتيجة الوحيدة – لوقفنا على شئون العوالم المجهولة منذ كثير من القرون – تجديد معارفنا التاريخية فقط، بل قلب جميع آرائنا الماضية في أصل تمديننا أيضاً وفي تطوره على توالي العصور.

كان الناس منذ سنين قليلة يظنون أن اليونان هم أصل كل تربية وتهذيب وأن فنونهم وعلومهم وآدابهم من مستنبطاتهم، وأنهم غير مدينين بشيء لمن سبقهم من الأمم. أما اليوم فلم يعد في الإمكان التسليم بأمثال هذه النظريات، فإنه وإن كان لا شك هناك في بلوغ التمدين القديم تمام ازدهاره في اليونان فلا مرية في أن (الشرق) إنما هو منشأ التمدين، وموطن ترقيه. ففي الوقت الذي لم يكن فيه اليونانيون الأقدمون الأجهلة برابرة كانت الإمبراطوريات الزاهرة قائمة على ضفاف (النيل) وفي سهول (كلدة) وقد اتضح أن (الفينيقيين) نقلوا إلى اليونان منتجات الفنون والصناعة المصرية والأشورية، فبقي اليونانيون دهراً طويلاً يقلدونها تقليداً قليل الإحكام. إنهم لو لم يكن قد أتيح لهم ماض طويل سبقهم فيه سواه

إلى التفنن لما صارت اليونان يوناناً، ولما أقامت (البارتينون) ولا (هيكل ديانا) ولا سائر عجائب الفن الذي نعجب اليوم بآثاره الدارسة.

وكلما كشف الغطاء عن أحوال الإمبراطوريات الشرقية العتيقة ظهر لنا عظم ما أخذه اليونانيون عنها واقترضوه منها. وليست اليونان ربيبة (المشرق) في الفنون فقط، بل تلحق به أيضاً في نظمها ومعتقداتها. فقد كان مشرعوها يستسقون العوائد المصرية والقانون المصري الذي يبحث فيه العلماء اليوم عن مصادر القانون الروماني ومن هذا تولد قانوننا الحاضر.

من هذه المعلومات الجديدة تبدو لنا الإمبراطوريات العظمى القديمة كلها – بالرغم من تنازعها الدائم، وحروبها القاسية – عاملة ناصبة في سبيل واحد هو سبيل الترقي والمدنية. وإذا كان التاريخ مملوءاً ببقايا سير الشعوب والديانات والإمبراطوريات التي لم تترك وراءها غير التذكارات فإن الترقي الذي تم إحرازه في التمدين لم يضع ق . وها نحن أولاء نتمتع وننتفع اليوم بنتيجة جهود تلك القرون. فالتمدين إذن قبس تزايد نوره من عصر الى عصر، وقد جرت به الأمم على اختلاف أنواعها.

وليس تقدم علم الآثار القديمة هو الذي أعان بمفرده على تجديد معلوماتنا وآرائنا في التاريخ فإن الاكتشافات في علوم الطبيعة والكون لها قسطها من العون أيضاً؛ فبفضلها دخل مبدأ الأسباب الكونية شيئاً فشيئاً في التاريخ، وتعودنا اعتبار الظواهر التاريخية خاضعة لقوانين لا تتغير كتلك التي ترشد إلى سير الكواكب أو تحول العوالم. وأصبح ما كان يعزوه الكتاب الأقدمون زمناً طويلاً إلى العناية أو إلى الاتفاق لا يعزى اليوم إلا

إلى القوانين الكونية البعيدة كل البعد عن عمل الاتفاق وإرادة الآلهة. فبعض هذه القوانين يسري على الألفات الكيماوية وجاذبية الأجسام، وبعضها تجري أحكامه على الأفكار والأعمال الإنسانية وتولد المعتقدات والإمبراطوريات وانحطاطها. ولسنا على علم دائماً بقوانين العالم الأدبي ولكننا لا نستطيع تحاشيها قط، فهي – كما قال أحد جهابذة الفلاسفة — تعمل لنا تارة، وعلينا أخرى، ولا تني تفعل فعلها غير عابئة بنا، فعلينا نحن التحرز منها.

ولتقدم العلوم الكونية أكبر الفضل في الأفكار التي شرعت تنبث شيئاً فشيئاً في التاريخ، وقد بدا من شأن هذه الأفكار أنها أظهرت بديهة تأثير الماضي وسيطرته على تطور الكائنات، فدلتنا على وجوب البدء بدراسة ماضي الجماعات لتفهم احوالها الراهنة واستشفاف مستقبلها. وأعلمتنا أن هناك ترقية في أعضاء الاجتماع كرقي الأعضاء الحيوانية. وأن الحكيم الذي يريد فهم إنجيل أفكارنا ونظمنا ومعتقداتنا يجب عليه أن يبدأ بدراسة أشكالها السالفة كما يفعل العالم الكوني الذي يجد اليوم إيضاح الكائنات في دراسة أشكالها الأولية. ومن يتدبر أمر التاريخ على هذا النحو يجد له اليوم نفعاً عظيماً وفائدة كبيرة في الحال الراهنة، بعد أن كان ضعيف المزية في عهد اقتصاره على تعداد الأسرات الحاكمة وذكر الوقائع.

وللتاريخ الآن المكانة الأولى بين العلوم لأنه عبارة عن تحليلها، فإذا كانت العلوم الحقيقية تعلمنا كشف أمر جسم من الأجسام أو حيوان أو نبات فالتاريخ يعلمنا الكشف عن أمر الإنسانية ويمكننا من فهمها، وليس للعقل البشري من مهمة أسمى وأنفع من مثل هذه المهمة.

٣

هناك عناصر كثيرة تختلف أهميتها، وفي الوسع استخدامها لتأليف تاريخ أية مدنية من المدنيات. فالمنتجات الفنية لشعب من الشعوب وأدب هذا الشعب ولغته ونظمه ومعتقداته كلها مطبوعة بطابع جهوده، ودالة على أفكاره، ففي الاستطاعة فهم هذا الشعب بدراستها وتفهم ظاهراتها. فينبغي لنا في إعادة الشعوب البائدة إلى عالم الحياة أن لا نهمل شيئاً مما تناوله نشاطها وراق في نظرها وسر تصورها.

ومن بين هذه العناصر المشار إليها صنف خاص يعد أهمها في المرتبة، وله التفوق على سائرها، لأن الأمم البائدة أنفقت فيه الشطر الأعظم من أفكارها وجهودها، ولأن له طبيعة معنوية خاصة تبين لنا جلياً ما رمت نحوه وقصدت إليه، ونعني بهذا الصنف منتجات فن العمارة. فللآثار أفصح لسان يعبر عن الحقيقة بإخلاص، وصحف الأحجار لا تعرف الكذب، ولشهادتها في تاريخ التمدين أهمية عظمى. وعلى هذا نقول أن رؤية معبد مصري قديم مثلاً تزيد في القيمة على تصفح عدة مئات من أوراق البردي. وكذلك كانت المدنيات التي نعرفها أكثر من سواها هي المدنيات التي تركت الكثير من الآثار كمصر مثلاً، ولذا اختصصناها بقسم عظيم من هذا الكتاب، فأبنيتها التي ساهمت من عادي البلى ناطقة بعظمة مطامحها، وسمو مراميها ومعتقداتها، وهي أقدم شاهد على جهودها الأولى، وأمجاد عهد فوزها وازدهارها.

وبدراسة المعابد والمقابر في (وادي النيل) تتضح لنا قيمة دلالة الآثار على فكرة الأمة. فنرى كيف يحيي ويتكلم في الآثار روح مصر القديمة،

وكيف تتغنى الرموز والإشارات الفصيحة بالأمل الخالد، وكيف ينبعث في سكون المعابد القليلة النور على الحياة الأبدية.

وإنا لنقرأ في آثار (مصر) المدهشة الباقية التي لم يتم مثلها في العالم محصول خمسين قرناً تقضت في أعمال وجهود وتفكير واعتقاد، ونفهم بهذه القراءة ما يفعله المطمح الأعلى لشعب من الشعوب في تطور مدنيته، وندرك الفكر الذي ساد أموره أكثر مما ندركه بدرس الأدب أو غيره عند هذا الشعب.

ولما كانت هذه الآثار مؤلفة على الأغلب من شئون خاصة بالموتى أو تخليد ذكراهم، وكان معظم الأبنية إنما أقيم كقبور؛ فقد دلت أيضاً مع عظمتها وبساطتها على أن القوم أرادوا بها إيجاد شيء يبقى على الدهر بإزاء ملايين الموجودات التي تتعاقب على الأرض وليس لها حظ الخلود. فكأن فن العمارة المصرية عبارة عن تحد تحدت به الحياة الموت، وغالبت به الفكرة العدم.

غير أن سمو العظمة التي تحلت بها هذه الآثار قد أخلاها من كل ما من شأنه الدلالة على الظرف، ومما يحرك خيالات النفوس وشهواتها، أي ما يحصل به ذاك السرور الوقتي في هذه الحياة القصيرة التي خالط الألم فيها اللذة، واشتد أثرهما كلما قصر أجلهما، فمن العبث أن يبحث المرء في آثار مصر عن الزخرف المؤلم أو الدقيق السار الذي يكيف لتمثيله الحجر بالعجن والقطع والحفر وغيرها وفق ما يدعو إليه التصور ويوحي به تأثر القلب الخافق الحي.

ليس للغرانيت والمرمر في عرف مصر تمثيل اللحم الفاني، فإنهما لما كانا من المواد المكتوب لها أبدية البقاء بعيداً عن متناول التلف فلا يليق بكتلهما العظيمة الصلدة إلا تمثيل الخالد نعني الحياة الباقية والآلهة. وعلى هذا نقول أن الجنس المصري قد احتقر الحياة الدنيا مخالفاً كل جنس سواه، وتملق الموت فلم يكن المصري ليهتم بما يسر أو يحزن أو بمن يحب ويعمل ويبكي ويغني على ضفاف النيل القديم، وإنما يصرف همه إلى الموميا الخالدة الراقدة تحت أربطتها تطالع بعينين من الميناء ركبتا في برقعها الذهبي ما نقش بباطن غطاء ناووسها من الأحرف الهيروغليفية الخفية.

وكان المصريون يضعون مومياهم تحت جبال من الحجر ويخفونها في مخابي لم يعرف كثير منها إلى اليوم ولن يعرف. وما ذلك إلا لشدة حرصهم على صيانتها وكرامتها. وشوهدان بعض هذه المخابي يزري بالقصور رحباً وزينة، وبه كل ما تجملت به حياة صاحب الموميا ممثلاً بالنقش أو الحفر. فللموميا إذن كل ما رمى إليه فن العمارة المصرية. ولها شيدت الأهرام واحتقرت السراديب ونقرت الأنفاق ونصبت العمد والمسلات. فكيف يعجب المرء إذن من اختصاص العمارة المصرية بالرسوخ والرهبة والعظمة التي لا يوجد مثلها في كل ما صنع الانسان.

أنفت (مصر) مما يهلك ويندثر، فعملت أكثر من سواها للخلود؛ فآثارها أقدم الآثار، ولا يبعد أن تتفرد في المستقبل بمزية البقاء والدوام على كل ما عداها. فإذا ما بردت قارتنا وهوت خالية في الفضاء، وهلك الحي الأخير، وذهبت آثارنا العظيمة هباء، فربما وقف قبر (كيويس) زمناً أيضاً فكان طللاً لدنيا عافية، وربما مضت إحدى الموميات بناووسها

المصون في رقدتها الأبدية الساكنة وحولها كل ما سرها في الحياة وعلى جدر الصخر الخالد صور من صنوف لذاتها القديمة، بل ربما كانت (مصر) هي التي ستعلن أخيراً نبأ حياة الانسان على الأرض يوم تخلو من الناس كما رفعت منار مديناتنا الأولى.

٤

لا تقل العوامل التي تعمل في توليد التمدين وترقيه عن العوامل التي تسيطر على ترقي الحي من حيث العدد.. ولكن العهد حديث جداً بدراستها، ولا محل للبحث عن هذه العوامل في كتب التاريخ وإن كان في الإمكان إظهار أثر المهم منها، وسندل عليه فيما يلي عند الكلام على سبب ارتقاء بعض الأمم الى التمدين وفشل بعضها فيه، وتفاوت الأمم التي ابتدأت من نقطة واحدة في الدرجات التي بلغتها في سلم الارتقاء. اما ما سنبينه في أوائل الكتاب القوانين العامة التي تحكمت في توليد العناصر المختلفة المكونة للتمدين إذ من الضروري أن تكون هذه العناصر ماثلة أمام الخاطر لفهم أصول النظم والأفكار والمعتقدات عند الأمم المختلفة التي أردنا بسط سيرها في هذا الكتاب.

أحدث المبدأ الفلسفي الحديث القائل بالتطور تغييراً كلياً في العلوم الكونية منذ ٢٥ سنة وجعل اليوم يجدد ما نفهمه من الشئون التاريخية وكان المعروف عند قدماء الكونيين أن التغييرات العظيمة التي حدثت على الأرض ولا يقل أثرها عن التغييرات التي جرت على الأحياء فوق ظهرها إنما جاءت فجأة بعد سلسلة من التقلبات والتخلقات المتعاقبة. وأهم من

قال بذلك العالم كوفييه وتبعه الأكثرون وظن كل منهم أن أساس هذا الرأي لا يتزعزع. غير أن بعض العلوم الحديثة دل على أن كوكبنا وسكانه قد تحولوا أو تكونوا بسلسلة من التدريج تماثل ما يجمع بين الشجرة والبذرة. وإذا لم يتدبر المرء إلا أقاصي أدوار التغييرات التي تمت فإن ما يبدو له منها يبدو عظيم أما إذا تتبعها يوماً فيوماً فقلما أدركها.

تجري التغييرات العظيمة في الحي والجماعة والمعتقد مجراها في الرقي ببطء فقبل أن تصل الكائنات والأشياء إلى أشكالها الراقية تمر بسلسلة من الأشكال الوسطى ويكون أثر البيئة في أول أمره غير منظور ثم تبدو التغييرات جلياً عند ما يعززها الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح وتضاعفها الوراثة على مر العصور. ولا نستطيع أن نفهم تولد المدنيات وترقيها وأصول النظم والمعتقدات وتعاقب الحوادث وسيطرة القوانين التي تتحكم في مجراها إلا بتطبيق مبدأ التطور على التاريخ. إلى قانون التطور – وهو جماع غيره من القوانين – يرجع الفضل في الرقي الذي حصل عليه الإنسان أثناء سيره العملي البطيء في ماضيه الطويل إلى مستقبل أحسن وغاية أرفع وتمام يراد أبداً ولا يدرك أبداً.

وهو التطور الذي جعل بتغييراته التدريبية الخفية من إحدى الشموس أرضاً تسكن وقمراً قفراً بارداً في عدة ملايين من السنين، وهو الذي أخرج الإنسان المفكر كذلك من ظلمات الحيوانية، وكان الأصل في التدريج العجيب الذي رقي به الغامض من دنايا الزوائد المخلوقة إلى مرتبة النظام العضوي فأوجد مثل نيوتن المعروف. وهو الذي تدرج شيئاً فشيئاً جعل من ذاك الوحشي الخشن ابن العصر الحجري إنسان اليوم المهذب.

ولقد نرى أمام إلمامنا التدريجي بقوانين التطور ووقوفنا على أمرها غني عن تلك السير التي أوحى بها الجهل والتعسف في التصديق وكانت منها أساطير الأولين القائلة بأصل الخلق من زوجين تامين نزلت منهما الإنسانية وتطرق إليها الفساد تدريجاً ثم أنقذها دم ذكي، أو الزاعمة وجود الجنة في أول الخليقة ثم اختفاءها وزوالها من الارض وتدخل السماء في مصائر الإمبراطوريات وظهور رجل عبقري يغير مجرى الأمور وتعقيب ذلك بحدوث القيامة في يوم تنتفي فيه المساوئ والمظالم[1].

لم تعد قواعد الملاحم الأدبية بعد أساساً للتاريخ مع ما هي عليه من تدخل القدرة وإتيان العجائب والخوارق، فالعالم العصري يدرس اليوم الظاهرة التاريخية كما يدرس ظاهرة طبيعة أو ألفة كيماوية أو سقوط جسم من الأجسام. فإذا ما نجح في الصعود إلى الأسباب واتضح له تسلسل المفاعيل ختم عمله ولم يضع وقته في نقد ما لا يفهمه من علم ناقص، نعني أنه ما حصل على الطريقة استغنى عن المذهب.

وطريقة العالم العصري في التاريخ اليوم عين الطريقة التي يتوخاها الكوني في مكان الدرس، فالجماعة البشرية تعتبر كنظام عضوي جار في سبيل الترقي وهناك تولد ونمو اجتماعي كالتولد والنمو الحيواني والنباتي وقوانين التطور التي تسري على الجميع واحدة.

وإذا تتبعنا التولد والنمو الحيواني صاعدين خطوة خطوة في سلم الموجودات نستدل على أن اجدادنا الأولين أقرب إلى الحيوانات الدنيا

[1] هذا رأي المؤلف، فله ما رأى.

منهم إلينا، ونرى كيف خرج كل عضو من أعضائنا بالتحول البطيء يعززه الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح وتضاعف الوراثة من عضو أدنى منه خلقة فنعلم كيف صارت زعنفة السمك عضواً يمسك بالحية الطيارة البائدة في الهواء ثم جناحاً للطائر ثم كفا لذات الثدي ثم يداً للإنسان في النهاية.

والتولد والنمو الاجتماعي – أو بعبارة أكثر سهولة أن درس المدنيات – يدلنا على سلسلة الترقي التي خرج بها شأن الجمعيات المنظمة على تعقيده من حال الوحشية التي طال بها عيش الأولين وكيف كانت جذور أفكارنا وعواطفنا ونظمنا ومعتقداتنا في العصور الأولى للإنسانية، فبدلاً من أن ترى تلك الهوة السحيقة بين الشعوب التي كانت تأكل الشيوخ المقعدين من أقاربها وبين التي تعنى بهم في شيخوختهم وتبكيهم بعد مماتهم. أو بين من كانوا يعتبرون النساء كالحيوانات الدنيا ملكاً لكافة رجال القبيلة ومن احترموهن وأحاطوهن بصنوف الرعاية. أو بين من كانوا يعدمون العجزة من الأطفال. ومن يسكنون المجانين وذوي العاهات في الملاجئ. تتضح لنا الروابط الوثيقة التي ارتبطت بها على مر الدهور الأفكار والنظم والمعتقدات المختلفة فنعترف بأن الحضارات الحالية خرجت بتمامها من الحضارات القديمة وتضمنت كافة جراثيم المدنيات المقبلة وأن تطور الأفكار والأديان والصناعات والفنون وكل العناصر التي تدخل في تركيب أية مدنية أمر حتم منظم كمثله في الاشكال المختلفة بالسلسلة الحيوانية سواء بسواء.

وكلما تقدمنا في هذا الكتاب بدا لنا أن هذا القانون المسيطر الذي يحول الأشياء لا يعمل عمله إلا بمنتهى البطء فقد قضى الملايين من القرون في تحويل السديم الى كوكب أهل للسكنى وصرف الآلاف من

السنين في تحويل وحشي العصور الأولى إلى إنسان متحضر.

وفي وسع الإنسان أن يدخل الاضطراب في تطور أية جماعة كما يدخله في تطور الحبة إذا سحقها، ولكنه لا يستطيع تغيير مجراه، فتمضي الانقلابات العنيفة من دون أن تعقب أمراً دائماً اللهم إلا الرقي الذي تأهل له الجنس واعتدت له عدته في أجيال مضت. ولا ينقطع سير التطور وقتاً ما إلا ويعود إلى مجراه الطبيعي فالأمم بهذا الاعتبار لا اختيار لها في انتخاب نظمها ومعتقداتها، فقانون التطور هو الذي يحتمها عليها تحتيماً.

ولم تبد للمؤرخين هذه النظرية العظيمة التي حولت العلوم الكونية في أقل من ٢٥ سنة إلا منذ عهد قريب مع أن الجهل بها يجعل تولد المدنيات وترقيها سلسلة من العجائب والخوارق لا يمكن إدراكها. والصواب المنقول أن أي شعب من الشعوب لم يستطع التفكير في كتابة تاريخه إلا بعد وصوله إلى الحضارة بزمن طويل، نخيل بذلك إلى من يدرس آثاره أو كتبه أن حضارته ابتدأت منذ بدأ تاريخه، ولذا قال كثير من علية المؤرخين أن بعض الشعوب لم تجز عليها الأدوار الدنيا الأولى فظهرت فجأة في الدنيا ومعها كل ما يؤهلها لتكون أمماً متحضرة.

ونصير هذا الرأي الأكبر مسيو (رينان) فقد قال في تاريخه عن اللغات السامية "إن الآريين والساميين ظهروا لنا في كل شأن بدرجة فذة من التهذيب وليس لدينا من مثل واحد على ارتقاء جماعة متوحشة إلى درجة الحضارة فمن الواجب القول فرضاً بأن الأجناس المتمدينة لم تمر بالحال الوحشية وأنها حملت في ثنيات أمورها من البدء جراثيم الترقي المقبل. ثم ألم

يكن في لغتها وحدها علامة على الشرف والنبل كفلسفة أولية؟".

وغير خاف hن قبول مثل هذا الرأي إنما هو عودة إلى السير العتيقة التي زعمت خروج المسكونة من العدم أو منيرفا مسلحة من مخ جوبيتر. فظهور جنس أذكى من غيره وتفوقه في الدنيا فجأة يعد معجزة إذا لم يكن قد أخذ هذا التفوق عن رقي أجداده. ثم إن القول بعدم رقي أي جماعة متوحشة إلى الحضارة يعد بمثابة نقض لنظرية دارون على (أصل الأنواع) وكالقول بأننا فيما عشنا لم نر ذا ثدي من المخلوقات الدنيا قد صار إنساناً، ويحسب أيضاً كمحاربة لنظرية تكون العوالم وانكار تحول شمس من الشموس إلى قمر من الأقمار، مع أن هذه التحولات تتطلب حرور عدد عظيم من القرون فلا يمكن أن يلاحظها جيل واحد أو الكثير من الأجيال.

وليس بمستصعب أن نأتي بمثل على تحول الشعوب البربرية إلى متحضرة فنقول: إننا إذا ضربنا صفحاً عن الآريين الذين ذكرهم (رينان) وكان لهم بفضل لغتهم السيطرة على عصر ما قبل التاريخ فلا جدال في أن العصور التاريخية قد شهدت تحول جماعات من البربرية التامة الى أمة متحضرة.

ها هم أولئك العرب الرجل المتبربرون قد خرجوا من صحرائهم تلبية لنداء النبي مُحَمَّد وبعد أن افتتحوا الدنيا القديمة اليونانية الرومانية صاروا في بضعة قرون من أرقى الأمم نظاماً وبقوا زمناً طويلاً على رأس الحضارة. وهاهم أولئك البربر الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية قد صاروا أرقى أمم المسكونة مدنية، ورقيهم وإن تم بسرعة في مدة لا تزيد عن نحو عشرة من القرون فليس من ينكرانه جرى تدريجاً بغاية النظام. ومن السهل التفرقة

بين درجة الفرنكي الخشن والفيلسوف المولى العظيم ابن القرن الماضي. ومما جعل يواصل التطور سريعاً سهلاً أن البربر وجدوا محصول الحضارة القديمة واستخدموه غير أن كنوز العلم والفن التي جمعها اليونان والرومان لم تحل من دون تقهقر أوربا إلى الوراء عدة قرون من جراء الإغارة فمرت أوربا بأزمان انحطاط قبل أن يتمكن سادتها الجدد من اكتساب عقليات من سادوهم وغلبوهم، ويستأنفوا السير إلى الأمام من المرحلة التي وقف عندها التقدم. وسنبين في فصل آخر جملة الأسباب التي مكنت بعض الشعوب من بلوغ وجوه مختلفة من الحضارة وقصور بعضها عن إدراك شيء منها فلا نفحص هذه الأسباب الآن.

بقي علينا بعد إن دللنا على وجود أمم رقت من البربرية إلى التمدين في عصر التاريخ أن ندل على إمكان ترتيب الأمم الحالية في سلسلة تصاعدية تبين للقارئ من أول نظرة تعاقب الوجوه التي تحتم على أرقى الأمم اجتيازها. وقد أنشأ جريدة هذا الترتيب من بضع سنوات مسيو (ليتريه) ورأيت من كفاية صحته في مجمله ما جعلني أنقله هنا.

قال مسيو ليتريه: "نرى في أول السلم الأمم المتحضرة بأوروبا ومن خرج منها ونزل بأمريكا واستراليا. ولكن هذا لا يستلزم بلوغ سائرهم درجة واحدة من الرقي.

وتأتي الأمم الاسلامية في المرتبة الثانية ونعني بها الأمم التي لتاريخها ارتباط عظيم بتاريخ الأمم المسيحية.

ونذكر في الصف الثالث الهنود والصينيين والتتر واليابانيين وهم قوام

أمم عظيمة غاية في الرقي من بعض الوجوه إلا أنها بقيت متعددة الآلهة.

والمرتبة الرابعة للإمبراطوريات التي بادت وكانت المكسيكيين وأهالي بيرو، وعهد دمارها حديث، ولذا عدت في جريدة الترتيب.

وتأتي في الدرجة الخامسة الشعوب السوداء التي لها بداخل افريقية مجموعات على شيء من أهمية الشأن.

والمرتبة السادسة في السلم لأصحاب الجلود الحمراء بأمريكا.

وفي الدرجة السابعة وهي نهاية السلم نرى البائسين المساكين متوحشي هولندا الجديدة" أ هـ

ونتدبر هذا الترتيب فنجد أن المرء يستطيع من دون الطواف بالدنيا ان يلقي في صقع واحد كالهند خاص باتساع رقعته و بموقعه وبتاريخه أقواماً من كافة درجات السلم الاجتماعي. ومن زار الهند كما زرناها من أوجرة الوحشية إلى المدن الجميلة – يحق له القول بأنه كمن عاش مئة ألف سنة ومر بأزمنة ما قبل التاريخ وبالعصر التاريخي. ولا بدع فقد يرى في كثيف غابات (آماركانتاك) جماعات (الخولاريين) بجلودهم السوداء ووجوههم الكالحة أقرب إلى القردة منهم إلى الإنسان يعيشون في الكهوف بلا مساكن ولا حكومة ولا قوانين ولا أسرات ولا سلاح لهم غير سهام من الأحجار المقطوعة. وفي الشمال بجبال آسام جماعات (الناز) أو الخاسيا، وشكلهم الاجتماعي يقوم على دعامة الأمومة، وعندهم تعدد الأزواج. وفي الجنوب على شاطئ مالا بار جماعات (الناير) ويمتازون بحسن الوجوه و بالذكاء وبدرجة أرقى من غيرهم في سلم الرقي، ونظامهم الأمومة كالجماعات السابقة.

وهناك شعب يقال له (تودا) على جبال نلجيري الشاهقة كله من الرعاة – وعنده تعدد الأزواج والزوجات، ووحدته السياسية والاجتماعية القرية.

وفي أواسط الهند جماعة (الهيل) الذين وصلوا إلى نظام القبيلة.

ثم حكومات (الراجبوت) التي تمثل زمن الحروب وعهود الإقطاع وفوق هؤلاء الحكومات الإسلامية، ثم المستعمر الأوربي المتمدين.

ولابد من مثل هذه السياحات ليفهم الإنسان ذاك الترقي النوعي العجيب عوضاً عن دراسته في الكتب، فيقف على تأثير قانون التطور الساري على كل شيء، من ديانات وعوالم إلى إمبراطوريات وأناس.

الفصل الثاني

أول العصور الإنسانية، ومصادر التاريخ



أول عصور الإنسانية

لم يكن في برنامج كتابنا هذا أن نأتي على وصف عصور ما قبل التاريخ. غير أننا في اضطرار إلى ذكر أهم شئونها لندل على بعد الأشواط التي قضي على الإنسانية بقطعها قبل الارتفاع إلى مرتبة الحضارة، فنقول:

مرت مئات من السنين بين العهد الذي امتاز به الإنسان على كبار القردة بأعماله العاقلة المبدئية وبين الوقت الذي اهتدى فيه إلى الإشارات والصور التي ترجمت عما يقرب من أفكاره، نعني زمن إحرازه لغة حقيقية . ومن الممكن تقدير هذا الزمن على حساب الطبقات الأرضية التي وجدت تحتها الأحجار المقطوعة وكانت أدوات آبائنا الأولين. ولكن هذا العصر لم يطو طياً تاماً لأنه امتد زمناً طويلاً عند بعض الأمم ولا يزال موجوداً عند بعضها فإن بعض متوحشي أفريقية والأوقيانوسية لم يخرجوا منه إلى هذه الساعة.

ولم تكتسب المعلومات والمعارف الأولى إلا بعد مضي الوقت الطويل في اكتسابها. ومن ذا الذي لا يدرك مقدار الجهد والنصب الذين عاناهما الأولون في إدراك أسهل أنواع الرقي.

ولم تستتر تلك العصور المظلمة إلا ببعض المعلومات من مثل الحصول على النار وحرث الأرض لبذر الحب وجمع بعض كلمات والمغامرة بالحياة في ركوب الماء بجذوع الشجر المنقورة. ولما اجتيزت هذه الخطى الأولى أسرع الرقي في سيره ولزم الإنسانية أكثر من مئة ألف سنة للوصول إلى أوائل درجات الحضارة. وتقضي بعد ذلك زهاء ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من السنين قبل أن تولد الطبقات البشرية المستنيرة في اليونان وروما. ثم مر ثمانية عشر قرناً أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه. ثم جاء القرن التاسع عشر الذي تحقق فيه من الاكتشافات في كل فروع معلوماتنا أكثر مما تحقق في سائر القرون السابقة.

ويقسم الكتاب عصور ما قبل التاريخ إلى أربعة أقسام: عصر الحجر المقطوع، وعصر الحجر المهذب، وعصر البرونز، وعصر الحديد.

أما العصر الاول – وهو أطولها عهداً – فقد شهد الإنسان حيث تخلص من الحيوانية الأولى على جهل بالزراعة والمعادن و صناعة المساكن، يلتجئ إلى الكهوف ولا عمل له إلا منازعة الحيوانات المفترسة فرائسها، ولا صناعة إلا قطع الأحجار قطعاً غليظاً وتركيبها في طرف هراوة للتسلح بها. ولقد دام هذا العصر مدة غاية في الطول وشغل عهداً جيولوجياً برمته تغير فيه وجه الأرض وما عليها من حيوان ونبات وجماد. ثم أعقبه عصر الحجر المهذب وتم فيه كثير من الرقي إذ عرف الإنسان تدجين الحيوانات والزراعة واستخدام أواني الخزف وإنشاء المساكن ونسج الملابس ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن المعادن فظل متوحشاً أو بربرياً ولكنه في بصيص من نور الحضارة التي لم يستجل شعاعها إلا بعد إحراز كثير من التقدم تم له أثناء العصر البرونزي الذي امتد إلى حدود العصور التاريخية. وفي آخر

أدواره حدثت الحوادث التي ورد ذكرها في القصائد الأولى.

وخطا الانسان بعض خطوات أخرى، فاهتدى إلى استخراج الحديد واخترع الكتابة وشاد المدن فابتدأ عهد المدنيات. ومما يذكر ان بعض الشعوب تقدمت شوطاً بعيداً في الحضارة وشيدت المدن ولم تكن تعرف للحديد استعمالاً، كالمكسيكيين القدماء مثلاً عندما هدم الأوربيون مدنيتهم بالغارات منذ أقل من أربعة قرون.

ولقد توصل العلم الحديث إلى إدراك التاريخ الأولي للإنسان مما لم يكن ليخطر بالبال منذ نصف قرن. أما اليوم فإن بقايا الأسلحة والصناعات والمساكن تملأ متاحفنا، وبواسطتها توصلنا إلى تمثيل ظروف معيشة أجدادنا الأولين.

وهناك مصادر أخرى للمعلومات مكنتنا من زيادة هذا التمثيل، نعني دراسة أحوال بعض الجماعات الموجودة الآن على سطح الأرض وليست على شيء من المدنية، فقد لوحظ أنها لم تفق أبناء العصر الحجري في الصناعة بشيء، ومن طراز معيشتها نستطيع إدراك ما كان عليه أجدادنا الأولون.

وتوجد أيضاً شعوب أخرى على شيء من الرقي الوسط وبدراسة أمورها نستدل، على سلسلة الأحوال المتعاقبة التي تقلبت على الإنسان قبل وصوله إلى الحضارة. خذ مثلاً بعض الجماعات الحربية المسماة (أشانتي) في أفريقية فإناسها يعرفون الخزف والمعادن وطرق معالجتها ولكنهم لا يختلفون في العيش عما كان عليه أبطال البربر الذين ذكره (هوميروس) وليست صناعاتهم وفنونهم بأقل من صناعات اليونان في عصور البطولة.

ولهذا نذهب إلى دراسة المتوحشين، وفيم نزور المتاحف، وفي وسعنا أن نرى رأي العين المراحل المتعاقبة التي قطعها الذكاء الإنساني الأول على مر العصور بتتبع ارتقاء الذكاء عند الطفل.

علمنا النشوء والارتقاء أن الكائن الإنساني يمر أثناء إقامته في بطن أمه بكافة صنوف الأشكال الحيوانية المتعاقبة التي تشكل بها جميع أجداده في العصور الجيولوجية. وكذلك يتلخص فيه الترقي التدريجي لجنسه. ففي الشهور الأولى من الحمل يكون الجنين شبيه بالأسماك ثم بالمخلوقات التي تعيش في الماء والهواء ثم يشبه بعد ذلك ذوات الثدي مبتدئاً بالدنياً منها، وبعد الولادة تبلغ معظم الأعضاء شكلها النهائي إلا المخ والذكاء فإنهما يستمران في تطورهما، وتمر عقلية الطفل بكافة الأدوار المتعاقبة التي مرت بها عقلية أجداده منذ البربرية الأولى، فإذا تتبعنا ترقيه العقلي حصلنا على صورة من ترقي الانسانية. والأوربيون والمتوحشون سواسية دائماً في المرور بهذه الأدوار الأولية فقط، ولذا نرى أطفال السود الذين يتربون مع صغار الأوربيين يتبعونهم أولاً بلا صعوبة في أدوار الرقي، فإذا ما وصلوا إلى درجة معلومة منه مضى مخ الأبيض في التطور إلى أن يبلغ الدرجة التي بلغها أجداده ووقف مخ الأسود عند الحد الذي بلغه مخ أسلافه ولم يتخطه، وهناك تبدو الهوة العميقة التي تفصل بين الجنسين، ولا يمكن أن تزول إلا باستمرار عمل الوراثة وتضاعفه ببطء في مئات السنين.

ظهر إذن من جميع ما مر أن تتبع تطور العقل والعواطف عند الطفل ييسر فهم تطورهما عند إنسان الأزمنة الأولى.

وأن الطفل بطبيعته الدافعة العمياء أو سائقه الطبيعي وبأنانيته وبخلوه التام من الخلق وبفطرته على الافتراس يشبه أحط أنواع المتوحشين، فإذا استكمل القوة والشهوات تم الشبه.

وفي رأينا أن دراسة نفسية الطفل تكفي في الدلالة على ما عسى أن تكون عليه عواطف الإنسان الأولى وأفكاره إذا أعوزت المستندات الجلية فيما يختص بدراسة المتوحشين الآن، ونعني منهم من لم يتخطوا مميزات العصر الحجري المهذب. وبناء على ما تقدم نصف ذاك الإنسان الابتدائي بأنه كائن مسوق مفترس خلو من بعد النظر، يسعى ليومه ولا يفكر في غده، وليس له من قانون إلا قانون الأقوى الأشد. أما ذكاؤه فكان أولياً محضاً وكانت معرفته للطبيعة وظواهرها مرتكزة على أغلظ ما عرف من ارتباط الأفكار كالإسكيمو الذي يشاهد قطعة من الزجاج في أول مرة فيضعها في فمه مقتنعاً بأنها ستذوب لشبهها الظاهر بالجليد. وهذه الظاهرة العقلية كالتي تدفع بالجاهل الى وضع الهائشة في مصف الأسماك. وكل العقول الدنيا من هذا الطراز.

وأقل بحث يجريه الإنسان في أحوال المتوحشين الحاليين يدل على حطة مستواهم العقلي فكثير من الشعوب كبعض الأستراليين والبوشيمان والهوتنتو لا يستطيعون العد إلى أكثر من ثلاثة أو خمسة. حكى (جالتون) فقال أن المتوحش بجنوب أفريقية يعطي الخروف ويأخذ ربطتين من التبغ ولا يستطيع أن يفهم ضعف هذه الصفقة، نعني أنه إذا توافرت عنده الخراف ورغب في الكثير من حزم التبغ باع خرافه واحداً فواحداً وتسلم في مقابل كل خروف حزمتين على حدة، ولا يأمن الغبن إلا إذا تصرف بهذه الكيفية.

وإذا أغضينا عن عقلية آبائنا الأولين وأردنا مجرد الإلمام بما كانت عليه معيشتهم فما علينا إلا النظر إلى المتوحشين الحاليين خصوصاً من لم يصل إليهم أي بصيص من نور الحضارة.

راقب الذين ساحوا في الأوقات الحاضرة احوال المتوحشين عن كثب فاعترفوا بأن الحالة الطبيعية من أقبح الأشياء وأن غير المتمدين حيوان غاية في الميل إلى الشر، ودلت شهاداتهم على أن المتوحشين الذين قاربوا بمصنوعاتهم وطراز معيشتهم ما كان عليه الأولون لا يمكن أن يقارنوا بغير الحيوانات المفترسة لأنهم على جهل مطبق بما نسميه الخير والشر، ولا دراية لهم بغير قانون الأقوى فيعدمون من أقاربهم من طعنوا في السن ويأكلونهم متى صاروا كلاً عليهم ويعدون نساءهم كدواب الحمل ويقتلونهن بلا مبالاة إذا قل نفعهن.

قال (صموئيل باكر) في كتاب له على (بحيرة ألبرت نيانزا) أرجو أن يرى الانجليز الميالون إلى السود قلب القارة الأفريقية كما رأيت وإذ ذاك تخلو قلوبهم من الميل إلى أولئك الأقوام. فالطبيعة البشرية في حالها الأولية عند متوحشي هذه القارة لا ترتفع إلى ما فوق درجة الغلاظة، ولا يمكن ان تقارن بشرف الكلب، فالأسود منهم لا يدري ما عرفان الجميل وما الشفقة وما الحب وما الإخلاص، ولم يدر في خلده ما يسمى الواجب والدين. فصفاته التي تميزه هي الطمع ونكران المعروف والأنانية والقسوة، وهو وأمثاله جميعاً لصوص كسالى حسدة ينهبون الجار الضعيف أو يتخذون منه عبداً يسومونه الخسف.

وقال (ب. سلفادو) في مذكراته عن استراليا: لما دخلنا الغابات لم نجد

بها غير مخلوقات هي أقرب إلى العجماوات منها إلى الإنسان تقتتل وتتذابح ليأكل بعضها بعضاً وتنبش قبور موتاها ولو بعد ثلاثة ايام من الدفن لتتغذى بها، ورأينا الرجل يقتل امرأته لأقل سبب والأم تقتل ابنتها الثالثة بدعوى كثرة وجود الإناث، وليس للجميع من دين ولا معبود على الإطلاق.

وأكد (أو ليفليد) أن القليل من الاستراليين تتاح له السعادة بالموت على فراشه موتاً طبيعياً فأغلبهم يرسل إلى القبر عاجلاً قبل أن يشيخ ويهزل لحرص البقية الباقية على كمية الغذاء.

وقال مسبو (دالتون) في كلامه عن متوحشي أواسط بورنيو: إنهم يعيشون في حال طبيعية لا يفلحون أرضاً ولا يأوون إلى مضارب ولا يأكلون أرزاً ولا ملحاً، وليس لهم جامعة تجمعهم بل يهيمون على وجوههم في الغابات كالحيوانات المفترسة و يتزاوجون في الآجام، فإذا ما ترعرع الاطفال واشتدوا انفصلوا عن أهلهم إلى الأبد. وينام جميعهم إذا جن الليل تحت الأشجار، ويوقدون من حولهم النار لطرد الأفاعي والحيوانات المفترسة، وكل لباسهم عبارة عن قطعة من قشر الشجر.

اما عادة قتل الأقارب الطاعنين في السن وأكلهم أحياناً فتكاد تكون عامة عند الأمم الأولية قال (تيلور) أن المتوحشين الغلاظ الذين يعيشون لليوم ولا يدرون ما الغد تشق عليهم معاناة تمريض العجزة وذوي العاهات ويرون الخير في تقصير أجلهم حسماً للحياة المؤلمة التي لا تجدي نفعاً، ولذا ترى من واجبات التقي عند بعض قبائل أمريكا الجنوبية المبادرة إلى قتل المرضى والشيوخ، ويجيزون أكلهم أحياناً، وقد حضر كثير من السياح

أمثال هذه المشاهد المؤلمة، ومن هؤلاء (كاتلان) الذي اضطر في الصحراء إلى توديع رئيس حربي بربري يقال له (بونكاه) أقعدته الشيخوخة وأضعف الكبر بصره ونحل جسمه فتركه أتباعه بأمر منه وأوقدوا بجانبه ناراً ضئيلة ووضعوا له جرة من الماء وبعض العظام. وكان هذا الشيخ قبل ما حل به من خيرة من خاضوا المعارك وملأوا القلوب رعباً، فاضطر رجاله إلى التخلي عنه في كبره للضرب في الأرض والبحث عن أماكن الصيد. ومما يذكر ان هذا الشيخ غادر أباه فيما سبق بهذه الكيفية عندما رأى أنه لم يعد يصلح لأمر من أمور الحياة

ويذكر المؤلفون الأقدمون أن كثيراً من الشعوب البربرية الآسيوية والاوربية احتفظت بهذه العادة حتى في عصور التاريخ. حكى (هيرودوت) من أحوال جماعات المساجيت أن الرجل إذا أسن عندهم وضعف اجتمع أقاربه وقتلوه واشتووا جثته مع لحوم أخرى وصنعوا منها وليمة كبيرة. وكان هذا الأمر في عرف أولئك الأقوام أحسن ما يمكن أن تختم به حياة المخلوق.

وقال (اليان) كان في (سردينيا) قانون يأمر الولد بقتل أبيه بالجرز إذا شاخ عنده لأن عيوب الكبر عندهم مجلبة للعار... قال: واستمر الصقالبة بعد دخولهم في النصرانية على قتل الشيوخ وذوي العاهات. وكانت جماعات الوند والمساجيت تشوي القتلى بعد ذلك وتأكلهم.

وليس لدينا ما يحملنا على القول بأن المتوحشين الذين سكنوا أوربا في عصر الحجر المقطوع كانوا خيراً من الذين ذكرناهم فيما مر، بل عندنا ما يحملنا على القول بأنهم كانوا شراً منهم، فالبلاد التي يعيش بها المتوحشون

الحاليون ذات جو حار أو معتدل فلا يحتاج ساكنها إلى مكافحة أمثال ما كافحه أجدادنا التعساء من الوحوش الهائلة يوم أن اضطروا إلى العيش أسرات صغيرة متفرقة كالكواسر الضارية.

والخلاصة أن الظرف الضروري لكل وجود كان عبارة عن تعدي الأحياء على من دونها وانتظار العدوان ممن فوقها، والقوة وحدها ذات السلطان، فليس للمريض والضعيف ومن أقعدته الشيخوخة وأفنت قواه إلا تطليق الحياة وما هي إلا مئات من القرون مرت بعد ذلك حتى عرف أجدادنا ما نستسهله اليوم من عاطفتي الإحسان والشفقة.

هذا هو العصر الذي صوره الشعراء من ذهب، بل العصر الذي حدثت عنه أسفار الكتاب المقدس فقالت ان آدما كان ينتقل أثناءه بباحات الفردوس الأرضي تحف من حوله الحيوانات طائعة يمضي فيها أمره. وإلى هذا العصر أراد الفلاسفة السابقون إذ نعود كما أبان (جان جاك روسو) أكبر مؤثر في الانقلاب الفرنسي إذ قال "إن المبدأ الأخلاقي الأدبي الذي ارتكنت عليه في كتاباتي يلخص في أن الإنسان طيب بطبعه يحب العدل والنظام... وأن الطبيعة جعلت منه سعيداً صالحاً جاءت الجماعة البشرية فأفسدته وأتعسته".

ولم يبق مفكر في عهد (روسو) إلا وشاطر الرجل رأيه المذكور. وفي الوسع القول أيضاً بأن المبادئ الفلسفية التي كانت قبلة المشرعين يومئذ إنما رمت دائماً إلى العودة نحو النظم الأولية لذاك العصر السعيد الذي جرى الظن في أن التساوي بين أناسه جعلهم يعيشون في إخاء عام شامل.

ولكننا رأينا بنور العلم الحديث ما صار إليه أمر هذا التصور الباطل فإذا كان هناك عصر ذهبي سعيد فهو أمامنا لا خلفنا، وإذا لزم أن نخلق لمن سلفوا نظماً سياسية واجتماعية فلا ينبغي أن نعزو إليهم ما لا يليق بهم من نظم الفلاسفة الصالحة الحسنة وإنما تلك القوانين الحديدية التي تجهل الشفقة لأنها هي التي كانت قوانين الجماعات في عصورها الأولى ومن هذه الجماعات البربرية – التي لا تعرف زراعة ولا تدجينا ولا معادن ولا تدري كيف تتخذ البيوت ولا تحجم عن قتل الأقارب الضعفاء ولا ترثي للمرضى – كان خروج الجماعات المهذبة الراقية بالتطورات المتعاقبة البطيئة، فعمرت مصر واليونان وروما. وإذا حدث وفنيت الجماعات الحاضرة وتحقق حلم الاشتراكيين فسنرى كافة المشاهد الرائعة التي روعت كوكبنا زمناً طويلاً يعد بكثير من القرون، ويومئذ يقضي على الإنسانية أن تستأنف السير في السبيل التي بينا بلاياها خطوة خطوة وهي أقل أملاً في التقدم مما كانت عليه في مبتداها.

على أن هذا النذير لا يخشى منه فعمى بعض الناس وجهل الجماهير وإن كفلا إيقاع الأمم جميعاً في هاوية البربرية فسيوجد دائماً في طليعة الإنسانية من يواصل بها السير في سبيل الرقي ما دامت كما قال بسكال "تعتبر كرجل فذ موجود على الدوام ولا انقطاع لسلسلة تعلمه". و نقول أن هذا الرجل المجازي رقي وسيرقى أيضاً تبعاً لما يحتمه قانون التطور الساري على العقل المفكر سريانه على أحقر حيوان وعلى آلاف الشموس المنتشرة في فضاء اللانهاية.

٢

فجر التاريخ

ما مر بالقارئ مما ذكرناه عن عصور ما قبل التاريخ يكفي للدلالة على النقطة التي ابتدأت منها الإنسانية ويبين مقدار الجهود التي عانتها في الارتفاع الى مرتبة الحضارة. فاتضح أن كافة الاكتشافات التي تمت للإنسان لم تتم له إلا بالجهد المتواصل، وأن العصور الأولى كانت العدة الضرورية للعصور التاريخية فلولا الأولى لما كانت الثانية. ولما لم تكن الغاية من هذا الكتاب تسطير تاريخ العصور الأولى فما علينا إلا الدلالة على النقطة التي ابتدأت منها العصور التاريخية من دون بحث في المراحل التي اجتيزت قبل الرفعة إلى التمدين اللهم إلا الوجوه الأخيرة التي سبقت عهد المدنية بقليل لتتضح العلاقة التي ربطت زمن البربرية بزمن التمدين المنير الباهر الذي ظهر على ضفاف النيل عند بزوغ جر الأزمنة التاريخية.

ومن أهم ما كشف عنه العلم الحديث تعرف أواخر الأزمنة التي سبقت التاريخ، خصوصاً أحوال الأمم الهندية الأوربية، إذ لم يبق من رسومها وآثارها وأسلحتها وكتابتها وسائر شئونها شيء، وذهبت سيرها أيضاً وصمت عنها التاريخ صمته عن سكان (أتلانطيد) الخفية التي غارت فجأة في باطن البحار على قول (أفلاطون) الحكيم.

ولم يتم تعرف تلك الأواخر التي أشرنا إليها إلا باعتبارات شيدت على دراسة اللغة، فدلت هذه الاعتبارات على أن أوربا وقسماً من آسيا كانا في أزمان ما قبل التاريخ تحت تأثير شعب واحد هو الشعب الآري الأولى

الذي باد عند ابتداء زمن التاريخ، ومن هذا الشعب خرجت الأمم الهندية الأوربية على قول من الأقوال الكثيرة الأنصار اليوم، وإن لم نعد منهم. أما مثل هذه الأمر فالهنود الآريون والفرس واليونان واللاتين والصقالبة والجرمان والسلت... الخ.

ولم يترك الجنس الأري وراءه أي أثر، فعد من الشعوب التي جهلها التاريخ. ولكن البرهان قام أخيراً على سبق وجوده من درس اللغات الهندية الأوربية، وتمكن العلماء – كما سنبينه – من إدراك تفصيلات نظمه ومعتقداته – وطراز معيشته وعاداته.

استطاعت الفيلولوجيا المقارنة (علم اللغات) في السنين الأخيرة أن تبرهن برهنة يستغنى معها عن كل فرض على أن اللغات الهندية الأوربية – كالسنسكريتية والألمانية واليونانية واللاتينية.. الخ، وما تفرع منها كالإيطالية والإسبانية والفرنسية.. الخ – أخذت كلها من لغة واحدة. ويسهل تعرف هذا بملاحظة أبنيتها المشتركة وأصولها الموحدة. ومن البديهي أن الكلمة الدالة على شيء أو معدن كالحديد مثلاً إذا كانت وحيدة الأصل على ضفاف الغنج والتاميز و بسفوح الألب وعلى شواطئ البلطيق فلا يمكن القول بأن الأمم التي لفظتها قد أخذها بعضها عن بعض وتناقلتها مع المعروف من أن هذه الأمم إنما عاشت ورقت وهي على جهل بعضها ببعض وعلى غير صلة تربطها كما لا يصح القول بأنها انتخبت الكلمة جميعاً للدلالة على الحديد مثلاً. وتنفرج مسافة الخلف بين الفرض والواقع إذا قلنا أن هذه الأمم عبرت بعدة كلمات متماثلة عن أشياء متماثلة، فالاستنتاج الوحيد الممكن إنما هو رد كافة اللغات الهندية الأوربية

إلى لغة واحدة تعد أماً للجميع وإن ضاعت اليوم ونعني بها اللغة الآرية التي أتيح العثور عليها بعلم الفيلولوجيا المقارن، وذلك بجمع الأصول المتماثلة للغات الهندية الأوربية.

وإذا تدبر الإنسان مقدار فساد أية لغة من اللغات بمجرد نقلها إلى مكان آخر غير الذي يجري الكلام بها فيه على أن اللغة الواحدة لابد أن تكون لأمة واحدة كانت مجتمعة في الأصل بنقطة من الأرض ثم انتشرت منها بالهند وأوروبا وهذا شأن الآرية.

ويتساءل المرء عن المكان الذي كان به الآريون قبل أن يضطروا بكثرة العدد إلى الهجرة والتفرق. ويجاب على هذا بأن تعيين مكانهم على التحقيق لم يتم بعد ولكن افترضوا أنه كان ناحية سهول آسيا الوسطى. ومن السهل الآن إدراك الكيفية التي علمتنا بها اللغة الآرية أحوال الشعب الآري فليس هناك أحكم من اللغات في تعريف مرامي الشعوب وآرائها لأن الكلمات التي يتلفظ بها الناس تتم على كونهم من الزراع أو الصناع أو التجار أو رجال الحرب وعلى أنهم من أهل الخيال أو الحقائق ومن المطبوعين على بسط المزاج أو قبضه. وأقول أنه لو عرض علي بالكتابة المختزلة كل ما يتلفظ به رجل من الناس في غضون عشرة أيام حتى الكلمات الخالية في مجموعها من معنى لتمكنت بلا كبير تدقيق من معرفة عمل هذا الرجل وذوقه وسنه ودرجة تهذيبه وخلقه، فرجل الأدب لا تجري على لسانه كلمات التاجر، والعالم لا يستخدم ألفاظ المتقين، وليس للجاهل كلام المتعلم، ولا لذي المطامع ألفاظ الخامل القابع.

ولا لزوم للإطالة فبديهي أن الجماعة التي تتلفظ بالكلمات الدالة على الرئيس والقسيس والملكية والأسرة والقماش والخشب والحديد مثلاً لابد أن تكون لها حكومة وديانة وعندها أملاك ولها نظام ما في الزواج ودراية بالحديد ونسج الأقمشة، ومن هنا عرفوا أن الآريين وإن كانوا أقل من الأمم الأولى المتمدينة التاريخية قدراً فإنهم فاتوا عصر الوحشية وراءهم بمسافة شاسعة وكذلك يستطاع القول بأنهم كانوا أمة زراعة تعرف فلاحة الأرض وتتخذ البيوت وتفتح لها الأبواب والمنافذ وتتعاطى التجارة بالمبادلة ولكنها تجهل العملة والنقود ثم أنها تعرف مبدأ الملكية الذي لا يعرفه المتوحشون لأنها وضعت الألفاظ الدالة على الأملاك والعقار والمنقول والحدود والبيوع والعقود وكانت تدفع الضرائب وتقسم اليمين وتعالج الخشب والحجر والنحاس والبرونز والحديد وتلبس القماش المنسوج، وظاهر من ديانتها أنها كانت تعبد آلهة متعددة مبهمة وأنها كانت تعبد قوى الطبيعة وتعرف السحر والأرواح. وتحرق موتاها و تعالج المرضى بالرقى وما شاكلها

وكانت الأمة الآرية لا تعرف الكتابة لأنها أقل من قدماء المصريين شأناً، ولم تعقب كما عقب المصريون أثراً دائماً، ولم يكن عندها شيء من الفنون والعلوم والنظام الاجتماعي الراقي، غير أن رجالها كانوا أرقى من رجال العصر الحجري المهذب بل والعصر البرونزي أيضاً.

واستعانت دراسة اللغات بمصادر أخرى لتفهم أحوال الشعوب التي سبقت زمن التاريخ، وأهم هذه المصادر دراسة الأجناس التي لا تزال إلى الآن في درجة منحطة من الرقي. فسلم التفاوت الذي كان في الاجتماع منذ آلاف القرون لا يزال موجوداً يرى الباحث إلي الان التدرج في مختلف

أقطار العالم. ولقد سبق لي أن أثبت في كلام ماض كيف يقع نظر السائح على كافة أشكال التمدين من الوحشية الأولى وعصور البربرية إلى القرون الوسطى والأزمنة الحديثة بالتجوال في البلاد الهندية. ويؤخذ من جميع ما تقدم أن مواد إيجاد أصل النظم والمعتقدات والصناعات والفنون عند الأمم الأولى المتمدينة لا تعوز الطالب، فيكفي أن يعمل على إيجادها وترتيبها فتتضح له القوانين العامة التي تنشأ عنها.

٣

مصادر التاريخ

إن تدوين أي تاريخ من التواريخ لا يمكن أن يتم على وجه عام إلا بواسطة المعلومات المأخوذة من الآثار والعقائد واللغات والتقاليد والكتب. فإذا ما وجد بعض هذه المصادر لشعب من الشعوب قيل إنه من شعوب التاريخ.

وقد ذكرنا في الأول الآثار لأنها أقدم شهادة خلفها الإنسان تشهد على مروره بالأرض وفي هذه الآثار ما بقي من عصور ما قبل التاريخ إلى اليوم.

فمن ذلك الأحجار الأثرية الهائلة والأنصاب المقامة على شكل موائد مستديرة وغيرها مما يوجد بالأراضي القريبة من المحيط الأتلانطيقي. وكانوا يعزوها إلى السلت أو القلت ويرون أنها مما أقيم في العصر الحجري. وهناك بعض الآثار الأخرى تشبه المناضد الحجرية ترى في الهند ولا ريب في أنها كانت القبور الأولى التي صنعها البشر. وعلى الحافات الداخلية لبعض هذه المناضد صور غريبة ساذجة تعتبر كأول محاولة حاول بها الناس الكتابة

غير أننا لا نزال على جهل بالمعنى المراد بهذه الصور.

وأقدم الآثار – بعد ذلك تلك الأحجار الهائلة الصامتة الخالية من الشكل – الأهرام وأبو الهول والمعابد المصرية، ومن بعدها قبور فينيقية وصخور (فريجي) المغطاة بالنقوش، ثم القصور والأبنية الدينية لأشور، وقد كشف عنها العلماء الأوروبيون أخيراً ثوب الحجاب.

وكان معظم هذه الآثار مجهولاً فيما سبق أو مدفوناً تحت التراب وبقي ما عليه من الكتابات طلسماً لا يحل مدة عشرين قرناً حتى ظن أنه من الأسرار التي لا يبوح بها الدهر، فجرى الاكتفاء في تعرف أحوال الشعوب القديمة بالمستفاد من تقاليدها وكتبها. ولكن الكتب ليست عريقة في القدم فالمعروف إن أقدمها عهداً إنما هو التوراة التي يعزون وجودها إلى تاريخ أقدم بكثير من تاريخ وجودها الحقيقي. وكل ما عرفناه في كتاب العهد القديم من سفر التكوين والملوك والقضاة من المدنيات الأولى بالشرق لم يتعد حداً معلوماً وما بقي لزمنا الرجوع فيه إلى اليونانيين مثل هيرودوت وديودور الصقلي وهما لم يمضيا بعيداً في تدوين أخبار جيرانهما ولم يوردا – عدا ملاحظاتهما الشخصية – إلا ما تنوقل في السير والأساطير. ويضاف إلى ما تقدم التاريخ الذي خلفه مانيتون القسيس في عهد بطليموس فيلادلف اتبع فيه تسلسل السنين وذكر الحوادث ولم يصدقه يومئذ أحد فيما زعمه بشأن أقدمية البلاد المصرية.

أما اليوم وقد حلت رموز الهيروغليفي والأحرف المسمارية وأصبح من السهل قراءتها كما تقرأ كتابات هوميروس فإنا نستطيع أن نرجع في ثنيات

القرون الماضية ٧٠٠٠ من السنين إلى الوراء في التاريخ الأكيد. ولا جدال في أن الآثار المصرية والأشورية قد توضح ما كتب على الحجر أو على البردي فنرى سحن الأجناس القديمة ونستطيع تتبع قدماء المصريين في احتفالاتهم ووقائعهم وأعمالهم ومعابدهم ومدنهم وحقولهم ثم في قبورهم نعني جثثهم المحنطة تحنيطاً عجيباً دفع عنها عادية البلى.

ويضاف هذا التاريخ المنقوش في الحجر إلى ما احتوته الكتب القديمة النادرة فيكمله ويرينا مبلغ ما كانت عليه سعة الإمبراطوريات الآسيوية التي تنبأت قصص الإسرائيليين بقوتها وعظمتها. وبهذا التاريخ أحيينا ذكر الفراعنة وعددنا أسراتهم ولاحظنا صحة قول المؤرخ مانيتون القديم في أن التمدين المصري أقدم تمدين في العالم وأن النيل شهد من الملوك أكثر مما رأته عروش أوربا كلها في ١٨ قرناً.

ويعد من المصادر التاريخية – عدا الآثار والكتب – اللغات والتقاليد والعقائد. فاللغات تعد وحدها من المصادر التي تمكن الباحث من تفهم حال أية مدنية من المدنيات، كما كان في تعرف أحوال الآريين الأولين الذين لم نعرف حالهم إلا من لغتهم.

ثم إن دراسة لغات المشرق القديمة كالمصرية والأشورية والفينيقية ولهجاتها قد ردت إلينا عصوراً تاريخية برمتها، إذ مكنتنا من تصفح كافة المستندات التي خلفتها الأجناس البائدة. وسنرى فيما يأتي أن اللغات خاضعة أيضاً لقانون التطور وأنها بأوليات شأنها وبالدرجة التي تبلغها بعد ذلك من الرقي تدلنا على مقدار الرقي المعادل لما بلغته هي عند الأمم التي تتكلم بها.

وما قيل عن اللغات يمكن أن يقال أيضاً عن الديانات فوجود الفكرة الدينية عند شعب من الشعوب تدلنا على وجوه تطوره العام فيمكن الحكم على الدرجة التي يتبوأها هذا الشعب في سلم الحضارة بالنظر إلى معبوده وهل هو من الخشب المنجر أو هو الرعد أو الشمس أو جوبيتر (المشتري) ومينرفا أو المعبود بان أو الرب الطيب ذو اللحية الدكناء والثوب الأزرق السماوي أو هو الله العظيم الذي ليس كمثله شيء أو فشنو الأكبر الذي لا نهاية لحدوده أو الرب العالم الذي لا يرى على قول الروحيين.

غير أن الحكمة تقضي هنا بعدم التسرع في الحكم بناء على الظواهر السطحية فالشعائر الدينية لا تعد شيئاً بجانب ما تبطنه من الأسرار. ومن الخطل مثلاً الحكم على عقلية المصريين بعقيدتهم كما وصفها (بوسويه) القائل بأن كل شيء كان في عرفهم إلهاً إلا الله.

وللتقاليد القديمة أهميتها أيضاً في التمدين وإذا كانت هذه الأهمية ثانوية فلأن التقاليد تتناقلها الأفواه فتفسد بسرعة، ثم أنها لم تقيد وتدون إلا بعد اختراع الكتابة نعني في عهد متأخر. على أن الكتب الأولية كبعض أسفار التوراة وقصائد هوميروس لم تفعل أكثر من جمع السير العتيقة التي دخلها الكثير من التغيير فكستها لوناً ثابتاً. ومعروف أن بعض السير القديمة المدونة في الكتابات الأولية عند كثير من الشعوب قد أماطت بعض اللثام عن حوادث غاية في الأهمية حدثت في عصر ما قبل التاريخ كالطوفان مثلاً فإنه إذا لم يكن عم الأرض فلا جدال أنه كان مصيبة عظمى على أقطار شاسعة.

يتضح مما تقدم أن الآثار والمعتقدات واللغات والتقاليد والكتب هي المصادر التي سنستقي منها معلوماتنا في تصوير مدنيات الأمم القديمة الشرقية وسنشرع بعد أن أبناها جملة في بسط تأثيرها الفقراء وندرسها مباشرة جهد الطاقة غير أننا لا نكثر من ذكر ولادة الملوك وحوادث الوقائع كالحال في كل ما تضمنه التاريخ المعتاد، وإنما نكثر من التغلغل في درس حياة الأمم ونظمها ومعتقداتها وفنونها، وستتجه جهودنا إلى تصوير حقيقة أمر تلك الشعوب وكيف صيرتنا إلى ما نحن عليه الآن بفضل أعمالها ومكافحاتها. ففكرتها لا تزال تنعشنا، وصوتها لا يفتأ ينادينا من طيات العصور، فيتردد صداه في سكون الرقاد الأبدي من أعماق القبور.

الفصل الثالث

نشوء الأسرة واللغة وارتقاؤها



١

نشوء الأسرة

كلما تجاوز الباحث عصور الوحشية والبربرية في أزمنة ما قبل التاريخ بدت له الأفكار والعواطف والنظم والمعتقدات مضاعفة، وظهر له أنها عبارة عن أشكال عامة لتطور واحد فذ عند كل الشعوب في بدء تحضرها.

وسيكون مطلبنا في هذا الفصل بسط أصول النظم والأفكار والعقائد المشتركة للأمم الأولى المتحضرة، وأهم الاختلافات التي طرأت عليها في انتقالها من شعب إلى آخر، فنبحث أولاً في الكيفية التي ارتأى بها الناس أساس الاجتماع في الأسرة والزواج والآداب والمعتقدات والملك... الخ، ثم نقفي من بعد ذلك بتاريخ حدوث المدنية عند كل شعب خصوصاً عند المصريين والبابليين والفينيقيين والإسرائيليين... الخ.

ولا يخفي أن النظم التي يجدها المرء عند كل شعب متمدين خاضعة – كالأجناس التي وضعتها – لقانون التطور، فالفيلسوف الباحث لا ينثني أمام صفة القداسة التي وصف بها بعض هذه النظم عن محاولة الصعود إلى

أسباب حدوثها وتتبع ترقيها على مر الدهور.

كانت هذه النظم في الوقت الذي ابتدأ فيه التاريخ على درجة ما من الرقي بلغتها وجرت أمورها من ثم بانتظام، إلا أنها كانت لا تزال مطبوعة بطابع البربرية الأولى التي نشأت فيها. فتدبر آثارها القديمة ودراسة الشعوب المنحطة يتسنى بهما إذن إيضاح مجمل النظم المهمة والمعتقدات. وسنرى فيما يلي إلى أي حد بلغت هذه النظم عند كافة الأمم في أول أزمنة التاريخ. ونستطيع بعد ذلك دراسة تفصيلات تغييراتها وأشكالها الخاصة في المدنيات الأولى.

ونبدأ بدراسة أول قاعدة لهذه النظم ونعني الأسرة التي أقيم عليها كل ما عداها فنقول: أنها كانت في بدء التاريخ على أهمية عظمى إذ اعتبرت عند الأكثرين كوحدة اجتماعية فكانت حكومة صغيرة في الدولة الكبيرة ترى الأب فيها الرئيس المطلق والبطريرك القديم ذا المنظر المهيب يحف من حوله أولاده وأحفاده وعبيده وقطعانه، وهذا أقدم ما عرف في الأزمنة المعلومة، ولكنه لا يستلزم حتماً أن تكون الأسرة البشرية قد ابتدأت بالبطريركية، بل ينبغي أن تكون قد اجتازت أشكالاً دنيا نجحت بعض الحيوانات في تخطيها.

إن فوضى الاختلاط الأولية وعمومية النساء عند القبائل الأولى أمران مشهود بصحتهما وسنسوق على ذلك البرهان.

والمشاهد أن فوضى الاختلاط نادرة بين الأنواع الحيوانية القريبة من الإنسان فغيرة الذكر على أنثاه أو نسائه – إذا كثر عددهن – من

العواطف الشديدة الوضوح في الحيوانية، والمثل على ذلك الديك والقرد وهما من كثيري الإناث وبعض الطيور التي لا تتخذ أكثر من أي واحدة، جميعها يدافع عن الألف ولا يهاب الموت. ومعروف أيضاً أن الوعول تتقاتل على امتلاك الأنثى فيستأثر بها الأقوى ولا يقربها سواه.

ولا تدوم الأسرة الحيوانية إلا وقت تربية الصغار، وربما امتد أجل المعاشرة بين الزوجين أحياناً إلى أكثر من ذلك فترى بعض أنواع الحيوانات التي لا تقرب غير أنثى واحدة كضرب من ضروب القردة يوجد بالهند أو الببغاء الصغيرة ذات الذيل الطويل إذا مات أحد الألفين تبعه الآخر.

ويدلنا مثل الحيوانات على ما كانت عليه العادات الإنسانية الأولى، فنستطيع أن نتمثل الأوائل يتيهون في الغابات ككبار القردة ولا يعيشون إلا جماعات صغيرة في كل منها الذكر وعدة من الإناث احتازهن بقوته ودفع عنهن مزاحميه. ثم كانت الضرورات الأولى الاجتماعية كالحاجة إلى الاتحاد وإلى دفع العدو المرهوب فحلت القبيلة محل تلك الجماعات الصغيرة المبعثرة، فأدى هذا إلى عمومية النساء المضادة لعاطفة الغيرة الحيوانية. وتلاحظ هذه العمومية عند كثير من الشعوب المتوحشة وفي الوسع تعرفها أيضاً بالآثار التي تركتها في الشعوب حتى في الأزمنة التاريخية، بل في ثنايا المدنيات الراقية أيضاً.

ولقد كانت العزلة شديدة الخطر على الإنسان في ذلك الدور المظلم لجهله وخلوه من السلاح ولعدوان الحيوانات المفترسة عليه واضطراره إلى مزاحمة أمثاله للحصول على النزر من القوت، فلم ير هذا الانسان بدأ من جعل القبيلة

وحدة يتفانى فيها الفرد لاستحالة العيش علية خارجها. ولما كان كل شيء في القبيلة ملكاً للجميع فقد جرت المشاركة أيضاً في النساء والأولاد.

أما فوضى المخالطة – وسنطلق عليها هنا لفظ السفاح – فإنه حال بين الولد ومعرفة أبيه فكان أول من عرف من الأقارب الأم وقلما تبينت للشعوب الأولى رابطة الأبوة، فلما أريد توكيدها لاذ الإنسان بعادات مضحكة كعادة الحضانة الشائعة في شعوب جنوب أمريكا ولا تزال في أوربا عند (الباسك) وهم سكان سفح جبال البرينات (أو البرانس) وخلاصتها أن المرأة إذا وضعت رقد زوجها ومثل آلام الولادة وتقبل العناية التي تبذل لها وسمع التهاني بالنيابة عنها. وغير خاف أن هذه العادة من المستحدثات على ما فيها من سذاجة لان سريانها لابد أن يكون قد سبقه حتماً معرفة والد المولود ولم تكن هذه المعرفة بميسورة في زمن السفاح القديم.

ولا يزال السفاح الأولي موجوداً إلى الآن عند كثير من الشعوب المتوحشة بالهند وأمريكا وأفريقية وهو على أخصه عند هنود (كاليفورنيا) لا بل عاد إليه اليوم بعض الجمعيات الاشتراكية المعروفة باسم الشيوعية (كومو نيست) في الولايات المتحدة الأمريكية فالأولاد لا يعرفون آباءهم ويربون جميعاً معاً، ولكن الدال خير دلالة على عمومية هذا النظام في أزمنة ما قبل التاريخ إنما هي الآثار العديدة التي تركها في الحضارات الاولى وأشار إليها أقدم المؤرخين فوصفها (هيرودوت وبلين واسترابون وديودور الصقلي) وقالوا أنها كانت موجودة وقت تدوينهم التواريخ عند شعوب (السيت) المتوحشة التي كانت تقطن الشمال الشرقي والشمال الغربي من آسيا وعند سكان الجزر البريطانية وليس الزنا الذي حرمه القانون الديني ووعي

كل المراعاة في الشرق القديم.. أو الاعتبار الذي كانت تلقاه البغايا المشهورات في عصر اليونان، أو ترك الزوجة ليتمتع بها الضيف كما هو حادث عند بعض الشعوب، أو التضحيات الجنسية التي كان يضحي بها على هياكل (فينوس) آلهة الجمال، إلا من بقايا السفاح الأولي.

ولا يندر اليوم أن نجد في الطبقات الدنيا من الشعوب المتحضرة بعض مظاهر السفاح الأولى فهي غاية في الظهور عند فلاحي روسيا كما ذكر مسيو (تساكني) في كلامه عن قانون العرف عند الفلاح الروسي وقد نشرته (المجلة العامية) وفيه قال الكاتب: "لأهالي حكومة (نجني نوفجورود) مثلاً عادة تجتمع بمقتضاها الفتيان والفتيات على أحد الجبال وبعد الغذاء والرقص يذهب كل فتى بفتاة. قال: وفي بعض الأعياد هناك يرقص الفتيان والفتيات ثم ينام كل فتى بجانب فتاة ولا يرى أقارب الطرفين في هذا من بأس. وتبلغ الحرية أقصاها بين الذكور والإناث إبان الأعياد في حكومة (أركنجل) ولا من يرى عيباً بل يقع اللوم على الفتاة التي لم تجتذب إليها أحداً من الشبان فيؤنبها أقاربها. وفي كثير من أنحاء روسيا عادة غاية في الغرابة تحريرها أن الشاب الذي يحل محل غيره من المجندين في إحدى الأسرات يكتسب حقوقاً على جميع الصبايا في هذه الأسرة إذا طالت إقامته عندها.

وفي حكومة (أستاوروبول) عادة أخرى لا تزال باقية في الأعراس خلاصتها أن يدعى الفتيان والفتيات إلى ليلة رقص قبل ليلة العرس مباشرة ثم يرقد كل راقص مع راقصة وبين الجميع صاحب العرس وصاحبته.

وعفاف الفتاة عند أهالي (أركنجل) من الأمور المستهجنة فالتي تحمل

من السفاح تجد من الرجال من يتزوجها بعد الحمل بخلاف التي تحفظ عفتها. أ هـ.

ومما يبين ما كانت عليه قوة وحقوق المشاركة في النساء عند الأقدمين أن الفتاة لم تكن تقدر على الالتصاق برجل واحد فلا يقربها سواه إلا إذا كانت زوجة للقسيس أو ملكاً له من قبل كما في (كمبودج) الآن. أو إذا كان قد غشيها أخدان الزوج كما كان عند أهالي جزر (الباليار) في زمن (ديودور الصقلي) - أو كانت ملكاً للأجانب كما كان عند البابليين الذين وصفهم (هيرودوت).

وكانت الأوامر الدينية عند كافة الأمم العتيقة تأمر المرأة بتسليم نفسها إلى أجنبي قبل الزواج. وهذا من قبيل الاعتراف والتمسك بما كان من حقوق الاشتراكية في النساء.

وعدا هذا فإن بنوة النساء أو الأمومة – وها موجودتان في أوائل عهد التاريخ – تشهدان بعمومية الاشتراكية النسائية في الزمن الغابر.

ولما كان الطفل يومئذ لا يعرف إلا أمه فقد سمي – منذ وجدت الأسماء – باسمها وورثها وحده من يوم نقلت الملكية من شخص إلى آخر. والظاهر أن الأمومة استمرت في أثينا إلى زمن (اسكروبس) فلم يكن للأطفال من ألقاب إلا أسماء أمهاتهم. ومن الفروض الجائزة القول بأن الأمر كان كذلك عند المصريين القدماء بدليل تكاليف البنات وحدهن إعالة الوالدين في الشيخوخة لأن الإرث كان لهن من دون الأولاد. ولا يزال نظام الأمومة موجوداً إلى الآن عند كثير من الشعوب الدنيا بآسيا

وأفريقية، خصوصاً أهالي (اسام) وزنوج جنوب الهند.

ولما توثق نظام الأمومة صار الأخوال أقرب الأقارب الذكور إلى الطفل لأنه لا يعرف أباه فكانوا يعاملونه معاملة الولد ويورثونه وعند قبائل (أشانتي) عادة مرعية تقضي بأن لا يرث الأولاد أباهم بل يرثه أولاد أخته. ومن قوانين القبائل النازلة في الجنوب الشرقي من أفريقية أن سلطة الرئيس يرثها أخوه أو ابن الأخت.

أما الحالة التي أعقبت اشتراكية النساء مباشرة فهي حالة الاشتراكية المحدودة المسماة تعدد الأزواج فلم يعد لجميع رجال القبيلة حق التمتع بكل امرأة بل لبعض هؤلاء الرجال فقط، فكان أزواج المرأة الواحدة أخوة يشتركون في التمتع بها. ولا تزال شعوب المغول في (تبت) والزنوج بشاطئ (مالابار) والكثير من قبائل أفريقية وبولينيزيا على عادة تعدد الأزواج. وأغلب ما يكون أزواج المرأة الواحدة اخوة كما قدمنا. ويرى المطلع على القصيدة الهندية القديمة المعروفة باسم (مهابهاراتا) أن أخوة (بنداوا) الخمسة اشتركوا جميعاً في ملكية (درا أوبادي) الجميلة ذات العينين الملونتين بزرقة النيلوفر.

والمعروف في تعدد الأزواج كما في السفاح أن البنوة الأبوية مستحيلة التعيين فتقسم الاطفال إذن بين الأزواج الأخوة بإعطاء الولد البكر للبكر من الأزواج والولد الثاني للثاني وهلم جرا. وهذه قاعدة مرعية في (اسام) وغيرها. ولا يخفى أنها صورة أولية ناقصة من الصور الأولى للبنوة الأبوية التي لم تظهر في الوجود إلا في زمن متأخر نعني في أوائل عهد التاريخ. ولا ريب في أن ترقي الملكية وعادة الفتح حصرت الاشتراكية النسائية المحدودة

وضيقت دائرتها شيئاً فشيئاً على مر القرون.

وهناك السبي واختطاف النساء، وكانا من العادات الجارية أيام كانت القبيلة وحدة الجماعة، فبني على هذا أن الزواج بقي على غير نظام عند الشعوب المتوحشة فالرئيس المتصرف في حصة من الغنيمة التي تؤخذ من العدو مختص نفسه ببعض النساء السبايا، ويبقيهن عنده متاعاً لا يقر به سواه، فلا يجد سائر رجال القبيلة إلا المشاركة في بقية النساء على قاعدة تعدد الأزواج. ولذا كانت النساء كقطعان الماشية أو كالرقيق فهن وما يلدنه ملك للسيد ينتفع به. ومن المعروف عن قبائل (أفانتي) في أفريقية الوسطى أن الرجال يتزوجون ما استطاعوا من النساء استكثاراً للنسل ثم يتجرون بما يلدون.

وقد أخبر كل من مسيو (دزيريه شارني) ومسيو (أولفيلد) أن القوم في استراليا لا يتركون للمرأة إلا ولداً أو اثنين ويربون الباقي إلى سن العشر فإذا سمن المربي ذبحوه وأكلوه فتبكي أمه قليلاً ثم لا تأبى أن تأخذ نصيبها من لحمه طعاماً لها.

وبقي لفظ الأب والزوج مدة طويلة بهذا الاعتبار مرادفاً للفظ الملك ولم يفرق قانون (مانو) الهندي تفريقاً ظاهراً بين نصوص الملك والاب مع أنه أورد ما كان جارياً من العادات قبل عهد وضعه بكثير. ومن نصوصه آن من يتزوج فتاة حاملاً أو ذات طفل فله حق الملك على أولاد زوجته فقط. ومما تقدم يتضح أن حق الملك للرجل على المرأة تقرر أولاً بحق الفتح نعني بالسبي ولا يكون السبي إلا من الأجنبيات. ومن هنا نشأت

العادة الجارية إلى الآن عند أغلب الشعوب التي لم تتحضر ونعني بهذه العادة أن لا يتزوج الرجل إلا من امرأة أجنبية. وكذلك ترى أن الزواج غير المنظم بقي حتى بعد زوال السبب فيه.

ولانتهاك عفة الفتاة في كثير من البلدان شبه احتفالات تقام على نسق غريب. فالعادة في (كامتشاتكا) أن يتم الانتهاك علانية. ومن عادات الصين إلى اليوم أن لا يحدث زواج بين سميين.

ولما كانت المرأة والولد عند الشعوب الأولى ومن أعقبها من الغابرين ملكاً مطلقاً للزوج له حق إبقائه وإزالته كما ورد في القوانين القديمة – خصوصاً قانون الرومان – فقد تتضح لنا عمومية قتل الأبناء عند جميع الأمم القديمة البربرية منها أو المتحضرة، فلم يخل مكان من هذه العادة اللهم إلا (اسبارطة ورومية). ولا يزال الصينيون الآن على تقدمهم يقتلون الأبناء.

وأغلب القتل واقع على البنات، لأنهن لا يصلحن للعمل والحرب. وقد مضى جماعة (الراجبوت) الهنود بالرغم من ذكائهم وشرف أخلاقهم وحضارتهم في عادة قتل البنات حتى أعوزتهم النساء. ولا شك في أن هذه العادة المؤدية إلى قلة النساء إنما كانت في جملة الأسباب التي بعثت على تعدد الأزواج عند كثير من الشعوب.

رأى القارئ من جميع ما سبق أن الأسرة البشرية لم تكن في الأصل ذاك النظام الديني المدني المؤسس على عواطف الوداد الذي ريم أن يرى أساساً لجميع الجماعات البشرية. وإنما هي نتيجة خرجت بعد كثير من التطورات البطيئة. وبعد أن نزلت بها أقصى ضروريات البربرية الأولى إلى

أحط مما عليه الأسرة عند الحيوانات. ولم تتخلص الأسرة من شائها الخشن إلا قبيل عهد التاريخ، ومن ثم كمل خلاصها فلم يكن السفاح الأولي بعد ذلك عند أغلب الأمر في الحضارات الأولى إلا أثراً بعد عين.

لقد تم وجود البنوة الأبوية في أوائل أزمان الحضارة، وأقيمت الأسرة على دعامة السلطة المطلقة للأب وحرمة الأجداد. وتحقق مثل هذا التطور أيضاً عند بعض الشعوب كالآريين الأولين مثلاً قبل التاريخ. وإذا تدبر الباحث لغة هذا الشعب البائد رأى الروابط العائلية فيها ظاهرة معروفة بأسمائها ودرجاتها، فمن لفظ القرابة إلى الأب والأم فالولد ومن الأخ إلى العم إلى العمة إلى ابن الأخ، وكلها كالمعروف عندنا الآن.

ويدل التطور الذي جرى في معظم شعوب الحضارات الأولى على مرور من الأمومة إلى الأبوة بحيث صارت الوحدة الاجتماعية من القبيلة إلى رب الأسرة. وسواء كان النظام المتبع في القرآن اتخاذ الزوجة الواحدة أم تعدد الأزواج فالزوج من ثم الرئيس المطلق. وقد كانت سلطته في روما على امرأته سيادة، وكانت الزوجة أمة لا يلتفت إليها القانون، ولسيدها حق إعدامها والإبقاء عليها، ولم يعترف لها المشرعون اليونانيون إلا بالواجبات التي عليها ولم يذكروا لها شيئاً من الحقوق.

وشوهد في أغلب المدنيات الأولى أن رب الأسرة سيد جماعة قوامها نساؤه وأولاده الشرعيون وأولاد السفاح والمتبنون والخدم وسائر الأقارب على اختلاف درجاتهم. وخير مثل تام على ذلك العشيرة عند الرومان فقد اتسع نطاقها في القرون الوسطى فكانت الدرجة الثانية من درجات التطور.

ولا ينبغي أن يعتبر القراء ما مر بهم في هذه الصفحات القليلة بسطاً وافياً، فما هو إلا إجمال القوانين العامة التي وقفنا بها على أصل الأسرة، ولا ريب في أن الضرورات المحلية تختلف اختلافاً عظيماً باختلاف الشعوب، وهذا ما أدى إلى اختلاف الأشكال الثانوية للتطور، وإلى التفاوت في سرعة فعله، ولكن القانون العام هو أن يجد الباحث أينما بحث عادة السفاح العام في البدء وما تتضمن حتماً من تفوق الأمومة. ثم تعدد الأزواج وهو شكل محصور مصغر للسفاح. ثم تعدد الزوجات أو اتخاذ الزوجة الواحدة وما يتبعهما من تفوق الأمومة وسيادة رب الأسرة بالشكل الذي ظهر لنا في بدء الحضارات الأولى.

ونظرة عامة إلى جميع ما سبق تعيد إلى ذاكراتنا ما وقع من الاختلافات في العادات التابعة للقوانين العامة التي ذكرناها، فندرك أن الضرورات المحلية هي التي اقتضت عند الشعوب المختلفة كل ما هو مخالف لآرائنا الحالية، من مثل زواج الأخ من أخته وزواج المتعة والإخلاص الزوجي الذي يتخلله بعض التساهل والزنا المباح إلى يوم الزواج فقط لتتمكن المرأة من جمع مهرها كما حدث في اليابان.

ومهما اختلفت الأشكال التي كيفت بها القوانين الدينية أو المدنية أو العادات روابط الذكران بالإناث فالظاهرة العامة التي يراها الباحث في كل مكان عند متوحشي القرون الأولى أو عند متحضري اليونان وروما إنما هي اعتبار المرأة كشيء امتلك بالحيازة مثل جميع الممتلكات التي تحصل بالفتح أو بالشراء أو بالتنازل، فهي عند سيدها كجواده أو أسلحته، له ان يؤجرها ويقرضها ويبيعها، وما تحرير المرأة إلا من عمل أهل العصر الحاضر،

فلم يخطر ببال الأقدمين أنه من الممكنات. كانت المرأة عند اليونان والرومان أمة شرعية لرب الاسرة له عليها الحقوق التي لها على ماشيته وعبيده. ولا ننسى ما عامل به (أفلاطون) المرأة في أرقى عصور اليونان مدنية فإنه قسا عليها كما قسا قانون (مانو) الهندي القديم. وعاب على المشرعين السابقين (مينوس) و(ليكورغ) إغفال القول بعمومية النساء وأكد في كتابه (الجمهورية) أن الواجب تداول النساء كما تتداول الأشياء.

ولم يجد الحكيم (سقراط) أو ذو الفضيلة (كاتون) جناحاً عليهما وخروجاً عن الطبيعة في إقراض الأصدقاء زوجتيهما. وإذا استثنينا بعض الفضليات المتمتعات بالحرية والعلم كبعض نساء الهند الآن فإن اليونان – وهم في العرف أرقى الشعوب القديمة حضارة – لم يخرجوا بالمرأة إلى أبعد من صف الرقيق. اما مصر فإنها البلاد الوحيدة التي ساوت بين المرأة والرجل أو كادت. والخلاصة أن عقد قران الجنسين – مهما اختلفت أوضاعه وشمل تعدد الأزواج أو الزوجات أو الزوجة الواحدة – ما كان إلا عقد عبودية للمرأة. وإذا أغفلنا الأزمنة التي سبقت التاريخ ولم نعد إلا الخمسين أو الستين من القرون التي قضتها المرأة رازحة تحت هذه العبودية فلسنا نجد بداً من القول بأن طول هذا العهد قد اعتاق ترقي عواطف المرأة وذكائها. وسنعلم في المستقبل ما سيكون من نتيجة ما نحاوله اليوم من تحريرها وتعليمها، وكل ما نقوله الآن أن هذه النتيجة غير قريبة لأن الهوة العقلية والأدبية التي احتفرتها بين الرجل المتحضر وبين المرأة – مضاعفات الوراثة من القدم تحتاج في ردمها إلى كثير من القرون.

٢

ترقي اللغة

لكل الحيوانات من الحشرة إلى الإنسان لغة، نعني وسيلة تدل بها على تأثراتها وحاجها جهد الطاقة. فذوات اليدين من القردة القريبة الشبه بالإنسان – حتى عدت أصل البشر – تتخاطب بلغة لا تبعد كثيراً عما يتخاطب به كبار القرود الآن. ومن ذا الذي ينكر معرفة القرود كيفية الاتفاق على نهب فاكهة حديقة من الحدائق، وإرسال المستطلعين، وتلقى الأوامر من القادة. أما أنواع الحيوانات العليا ففي وسعها إجادة التعبير عن أفكارها الفطرية ورغباتها وحاجها بأصوات مختلفة.

ولا تقتصر الحيوانات على التفاهم فيما بينها فقط بل تحاول إفهامنا ما استطاعت، والمثل على ذلك الكلاب فقد توصلت إلى فهم بعض كلمات من لغتنا. كان عندي كلب صغير من كلاب الصيد التي تبحث عن الطرائد في مخابئها وكان يصغي إلي كل الإصغاء إذا ذكرت له السكر واللحم والنزهة خارج المنزل فأفهمته هذه الكتابات بالانجليزية والألمانية أيضاً وكنت أعيدها عليه – بعد ذلك فيفهم مدلولاتها فأجعله مثلاً لسيده الصغير الذي لا يصبر على تعلم اللغات الأجنبية.

ولقد عرفنا بأمثال هذه الملاحظات في الحيوانات، وبأمثلة أخرى من المتوحشين سيأتي ذكرها، أن اللغة لم تخرج عن حكم قانون التطور الساري على جميع مظاهر الحياة المادية والعقلية.

تبعت اللغة ترقي الإنسانية، وبقيت دائماً على صلة وثيقة بهذا الترقي،

أو مشت بإزاء ترقي الأفكار فارتقت وربت وتنخلت معها. وهذا حق جلي. يبدو الآن في جماعاتنا المتحضرة. فاللغة التي يتكلم بها شعب قد تختلف في أفواه المتكلمين باختلاف درجات تهذيبهم فلا تخرج ألفاظ المتكلم عن مستوى أفكاره وقواه العاقلة. وبينا تسمع للعالم من الألفاظ الآلاف إذا بك لا تسمع للفلاح إلا المئات. وليس في الناس من يستطيع القول بأنه فهم لغة بلاده وتكلم بها كلها لأن اصطلاحات الفنون والعلوم والألفاظ المستعملة في المهن الخاصة لا تتكلم بها إلا فرق خاصة. وكلما ازدادت معارف شعب من الشعوب كثرت كلماته وقامت بكفاية حاجه العقلية وتعذرت الإحاطة بها جميعاً على كل فرد – فأخذ منها المرء على قدر حاجته وأهمل الباقي أو جهله.

ولقد كانت اللغة عند الأوائل – الذين لم يرق ذكاؤهم كثيراً عن ذكاء الحيوانات – مركبة من بعض علامات لإظهار التعجب لا تنطق، إذ معظمها من الحركات. ولهذه الحركات أهمية عظمى في حديث المتوحشين الحاليين فهي تكمل القول وتعين على التفاهم عندما يكون المتخاطبون من قبائل مختلفة اللسان.

وكلما ارتقت اللغات واغتنت قل لزوم الحركات والإشارات. ولكن، من ذا الذي تؤاتيه الكلمات بكثرة في أية لغة فيستطيع الدلالة على جميع صور العواطف والأفكار من دون الاستعانة بحركة الوجه أو الأيدي أو تكييف الصوت. والمشاهد أن الاستهزاء والشات والحنان والغضب قلما يبديها المرء بالألفاظ وحدها بل يصوت إخراجها و بالإشارات الدالة عليها.

ومع استخدام الحركة والإشارة تكون اللهجة من ملحقات اللغة،

فتوضح القول إذا كان القول لا يزال ناقص التأليف. ففي الصين مثلاً يلفظ المقطع الواحد بخمسة أصوات أو ستة أصوات مختلفة فيدل في كل صوت على مدلول خاص. واللغة الصينية هي اللغة الوحيدة المتحضرة التي بقيت في درجة منحطة من التطور، ولذا انتفعنا بها وتمكنا من تعرف وجه من وجوه اللغات وكيفية الانتقال منه إلى الذي يليه، وسنبين ذلك فيما يلي ونبادر الآن إلى القول بأن ما اختصت به اللغة الصينية من الحطة يرجع إلى سبب اختراع الكتابة هناك قبل أن تترقى لغة الكلام تمام الترقي، والمعروف أن النتيجة الأولى للكتابة إذا لم تكن الوقوف المطلق باللغة حيث هي فلا أقل من أن تجعل تطورها بعد ذلك بطيئاً.

ونجمل ما مر فنقول: إن صيحات الحيوانات، واللغات الفطرية عند بعض المتوحشين، وعادة هؤلاء في التعبير بالحركات والإشارات مع الكلمات؛ تدلنا كلها على أن الأوائل تفاهموا قبل اختراع اللغة الناطقة بوسائل نهاية في السذاجة تلتئم مع ما كان من ندرة أفكارهم وفطريتها، فلما شرعوا في استعمال المقاطع كانت طريقتهم في البدء المعارضة والتقليد فكانت لغتهم الأولى ذات مقطع واحد. وإنا لنرى ذلك اليوم في السكنية التي يبتدئ بها الطفل في الكلام، غير أن الطفل له مزية على أوائل البشر هي سماعه كلمات تامة التأليف من قبل ينطق بها من حوله، وإذا وعت أذنه بسرعة كل ما يقال فلسانه يعجز – عن النطق بالمسموع لعدم المران، فيسمع مثلاً مقطعين ولا يتمكن في البدء إلا من إعادة أحدهما فقط وكثيراً ما يضاعفه فيكون صدى متكرراً للمقطع الأخير، فتقول له شكولاته مثلاً فيقول لاته لاته وهلم جرا. وإذا لم يبق على الأرض لغة من ذوات المقطع

الواحد فلا شبهة في أن مثل الطفل يدلنا على أن أول وجه من وجوه اللغة البشرية كان كذلك. وسنرى أيضاً أن هذه المقاطع كانت كلها تقليدية، وما يخترعه الطفل منها – لا ما يتعلمه – هو من هذا القبيل، فإذا أردنا إفهامه فدعونا له الكلب باسم "واوا" أو الطير باسم "كوى كوى" فظاهر أننا أفهمناه بما سبق إليه اختراعه.

ولا يزال في لغاتنا الجميلة المتنخلة كثير من آثار هذه الاصطلاحات الأولية مثل "طق" لصوت وقع الحجر و"زقزق" لصوت العصافير وما جرى هذا المجرى، وكلها جاءت بطريق المحاكاة.

أما اللغة الصينية التي ذكرناها فيما سبق فقد ظلت على وجهها الأول الوحيدي المقطع، فكلماتها الأساسية وعدتها خمسمئة هي خمسمئة مقطع. وبتنويع الأصوات يسد الصينيون النقص في لغتهم الفقيرة فينطقون كل مقطع بخمسة أو ستة من الأصوات المختلفة، وهذا ما جعل لغتهم من أصعب اللغات على الأجانب.

وجاء بعد المقطع الواحد التئام المقاطع وجمعها لتأليف كلمات جديدة بل جمل بأكملها مع الاحتفاظ بالمعنى الخاص لكل كلمة. واليابانية والتركية واللغات الاسترالية والأمريكية لا تزال في دور التئام المقاطع.

ويتبع هذا الدور دور تغيير شكل الكلمة الواحدة، فتتمازج المقاطع مع حذف بعض الأحرف أو نقص يخرجها عن طبيعتها. وكثير من هذه الكلمات لا يستعمل الآن إلا مزيداً في أول اللفظ أو ملحقاً به في آخره، وقد فقد معناه الأصلي بالإضافة إلى اللفظ الذي جرد. ويتفق أحياناً أن

يحول هذا المجرد عن معناه الأولى فيبعد مجموع اللفظة المركبة عن المراد أو المعنى الأساسي لكل جزء من أجزائها، وكل لغات الشعوب المتحضرة من الجنس الهندي الأوربي لغات تمازج وحذف كاليونانية واللاتينية والإسبانية والإيطالية والانجليزية والألمانية.

ولم تصل أية لغة من اللغات المذكورة إلى حالها الراقية الحالية من أول-وهلة، إذ كلها مشتقة من لغة أساسية هي الآرية التي لابد أنها استمدت من لغات مجهولة أقل منها. ولا يستطاع تعيين الوقت الذي وجدت فيه أية لغة، ولا تاريخ بدء التكلم بها.

قال مسيو (براشيه) اللغوي الضليع: "إن مسافة الخلف بين لاتينية الفلاح الروماني وفرنسية (فولتير) تبدو للناظر عظيمة الانفراج، ولكن التحولات الدقيقة التي توالت أزماناً طويلة هي التي أدت إلى تولد الفرنسية من اللاتينية.

ولا تعزى فرنسية (فولتير) إلى لاتينية الفلاح الروماني فقط بل إلى آرية سهول آسيا العليا وإلى اللغة الوحيدة المقطع التي استعملها بعض أجناس البشر وإلى الأصوات الخلقية لأوائل الناس وصياح الحيوانات، وكل هذه منابع خرجت منها اللغة بتحولات وتغييرات غاية في الدقة وقعت في أزمان نهاية في الطول" أهـ

ولا شيء يسرع إليه الفساد كاللغة عندما تكون الكتابة مجهولة أو قليلة الاستعمال عند من يتكلمون، وتغير اللغات المحلية بالقرى في البلاد الجاهلة – مثل يساق على ما نقول.

وقد كان العامل الهام الذي كشف لنا عن التاريخ والمدنية ما بقي من كتابات الأقدمين في الكتب أو على الأحجار. فقلنا - قبل أن نحل رموز هذه الكتابات – أن لغات من تركوها لابد أن تكون راقية أو كانت متمشية في دور التكوين عندما شرعوا ينقشون أحرفها على الغرانيت. وكان قولنا هذا في محله فقد اتضح أن للغة المكتوبة – كما للغة الكلام – أدوارها الخاصة. فكانت الكتابة في أول الأمر تقليد الأشياء الخارجية مثلما قلدت لغة الكلام الأصوات والصيحات. وهذا الاعتبار نقول أن صور الدباب والوعول التي وجدت على عظام الأفيال البائدة (ماموث) في عهد الحجر المقطوع يصح أن تعد – على سذاجتها ونقصها – أمثلة أولية فطرية للكتابة كما عدت المعارضات الصامتة للمتوحشين أمثلة أولية للكلام.

وكانت الكتابة في أول أمرها تمثيلاً لأطراف الاشياء، ثم اختصرت الخطوط فأنتجت صورة قريبة من أصولها قرباً ما، فكان هذا الهيروغليفي. ثم ميزت بعض الأشياء التي تلفظ أسماؤها تلفظاً خاصاً ببعض العلامات فانتهى الأمر إلى تغلب العلامة المميزة لصوت الكلمة على مدلولها في الاعتبار فكانت الكتابة الصوتية. ولم يستعملها القوم أولاً إلا في كتابة الكلمات المجردة العامة المستحيلة التمثيل بصور أو بما يشبهها. وكذلك كتبوا الأفعال والصفات الأدبية أو الضمائر بالكتابة الصوتية بين الأسماء المشتركة المدلول عليها بما يشبهها وكانت هذه كتابة مصر في أول زمن التاريخ.

ثم حدث أخيراً أن حلت الأصوات إلى عناصرها الأولية، وأشير إلى كل عنصر منها بعلامة، ومن تركيب هذه العلامات تألفت الكلمات. وهذه هي الكتابة الحرفية (ألف بائية) التي اخترعها الفينيقيون.

ومجمل ما مر فنقول أن أدوار الكتابة ثلاثة: دور تصوير الفكرة، ودور تصوير الصوت، ودور التصوير بالأحرف. وإذا لم تطابق هذه الأدوار في كل مكان أدوار نشوء اللغة وترقيها، من المقطع الواحد إلى تكوين الكلمات والجمل وبلوغ الغاية التي وصلت إليها من المرونة، فلا أقل من أن تدل على فعل قانون التطور في الكتابة كما في اللغة.

ولا يعد أي شعب من الشعوب في مستوى راق من الحضارة إلا إذا كان نهض بلغة القول ولغة الكتابة عنده إلى درجة عالية من الرقي. وعلى هذا نقول: إن وصول البشر إلى ما نرى من المقول والمكتوب بعد أزمان طويلة تقضت في جهود بالغة من شأنه أن يشهد باستمرار تدرج الإنسانية في معارج الاتقان، وهذا ما يجعلنا نحترم الماضي ونزداد أملاً في المستقبل.

يتبين أيضاً مما سبق أن اللغة من خير عناصر الإعانة على فهم حال الحضارة عند الشعوب. ولا يعترض بأن هناك أمماً تركت لغتها الأصلية واتخذت لغة تخالفها، وبأن لغة الغالب تخالط لغة المغلوب بعد الفتح وتنتهي إحداهما باستغراق الأخرى؛ فهذا وإن صح لا ينقض نظريتنا بل يعززها ويؤكدها. إذ المعروف عن لغة أي شعب أنها الدليل على درجة تطوره فلا يتركها إلى أخرى لا إذا غير وبدل في اللغة الجديدة. وهذا ما وقع دائماً فاللاتينية أنست الغوليين لغتهم السلبية أو القلتية القديمة ولكن اللاتينية التي تكلموا بها بعيد الفتح لم تماثل قط لاتينية (فرجيل) و(هوارس). ومن يقارن بين نص يمين (استراسبورغ) وهو من اللاتينية الفاسدة التي كانت لأحفاد (شرلمان) وبين أن خطبة من خطب (شيشرون) يلاحظ أن الأول أثر خشن لعهد بربري أما الثاني فثمرة يانعة لحضارة راقية

وذوق أدبي سليم وتهذيب عقلي بالغ. وما تكلم القوم على (السين) بلغة تماثل لغة ذلك الخطيب المشهور إلا بعد مرور مئات من السنين وظهور كتاب عصر (لويس الرابع عشر) نعني في جيل بالغ التطور فيه من الوجهة الأدبية والعقلية مبلغ ما كان عند معاصري (أغسطوس).

ولم يأخذ الغوليون من اللغة اللاتينية إلا ما وافق أفكارهم وكيفية شعورهم وفهمهم ثم كيفوه على ما أرادوا، وهذا ما يحدث دائماً كلما أخذ شعب لغة غيره وترك لغته فيغير العرض ويبقى الجوهر كالثوب تبدل زيه وبقي قماشه.

وإذا تعارض جنسان ولغتان ساد أبعدهما شوطاً في التقدم، ولكن المنحط لا يأخذ لغة الرفيع على حالها كما قدمنا، بل ينزلها عند حد حاجه ودرجة تطوره العقلي. وكذلك فعل غلاظ رجال الشمال إذ هبطوا (نور منديا) فاتحين فقد أخذوا لغة المغلوبين لرفعتها ولكنهم غيروا فيها على مقتضى حاجهم.

وإذا كان الجنسان المتعارضان على درجة واحدة من التطور امتزجت لغتاهما وهذه الكيفية تولدت الهندستانية اللغة العامة الحقيقية للهند الآن ولم يمض على تولدها نحو ثلاثة قرون، وقوام هذه اللغة مزيج من اللغة المشتقة من السنسكريتية لسان شمال الهند في زمن إغارة المغول ومن الفارسية التي دخلها بعض الكلمات العربية من لغة الفاتحين.

ولا تقتصر الشعوب على تغيير اللغات التي تأخذها عن غيرها بل تعدل في لغتها أيضاً على توالي الأيام لأن اللغة تنبع التطور العقلي دائماً

كما تدل عليه، وكلما ترقت الأفكار تنخلت اللغة فيخترع أهلها كلات جديدة للمبادئ الجديدة ويهتدون إلى الاساليب الشائعة للتعبير عن أدق العواطف، فإذا سادهم التصور أوجدوا كثيراً من الصيغ الشعرية والتشبيهات الرائقة. وإذا اجتذبهم العلم أكثروا من الاصطلاحات العلمية والفنية. وإذا كان نصيبهم العقل المجد المدقق تكاثفت جملهم. وإذا كانوا من أولى الدعة والذهاب مع الأحلام أطالوا الجمل الرخوة على مناحي عديدة مختلفة. فالفرنسية مثلاً – وهي اللغة الواضحة الطلية المحبوكة الأطراف – تدل على أن العبقرية عندنا أقل في غورها منها في إشراقها، فهي مأخوذة بالجلاء، ولوع بالبساطة. وتدل الألمانية – بكلماتها الطويلة وجملها الجديدة واصطلاحاتها الغامضة – على الروح الجرماني الممتلئ بالمطامح المختلفة فهو متلبد ثقيل. أما القيود التي ترمي دائماً إلى حصر الأساليب الانجليزية فهي الشهادة للإنكليز بأن عبقريتهم جدية عملية، وبأن شعبهم قد دان بالحقيقة القائلة "أن الوقت من فضة".

ونختم كلامنا هنا بأن اللغة مرآة أفكار أهلها ومقياس تقدمهم، وأن كل شعب لا يأخذ منها إلا ما التأم مع حاجه، وأن اللغات تستخدم في تدوين وجوه تطورنا البشري البطيء في مختلف العصور.

الفصل الرابع

نشوء المعتقدات والقانون والأخلاق وترقيها

١

ترقي المعتقدات

أنار تقدم العلم الحديث سبيلنا إلى معرفة أصول المعتقدات والحاجة إلى التدين، وهي تلك العاطفة الخفية التي نجدها عند أغلب الأمم ويعتبرها المتدينون وحياً داخلياً يسبق وحي المعجزات الذي جاء به الأنبياء.

ولقد هدمت الاستكشافات الحديثة في علم النفس المقارن هذا الاعتبار – فلا يمكن عد المعتقدات اليوم إلا كثمرة طبيعية من ثمار مخ الإنسان وقلبه، فهي تنشأ وتترقى فيه وتنضج كسائر الأفكار والعواطف. ومن السهل الصعود إلى أصلها وإدراك خضوعها لقوانين التطور، أسوة بجميع مظاهر العقل الإنساني.

والظاهر أن الأصل في التدين عاطفتان غاية في السذاجة، هما الخوف والرجاء بهذا الترتيب.أما الخوف فبعثته في نفوس الأوائل مخاطر الطبيعة الرهيبة والرغبة في الاحتفاظ بالنفس، فلم يجد لتلطيفه وتنظيمه إلا ذكاء

غاية في النقص لأن ترابط الأفكار أو ائتلافها لم يكن قد تم يومئذ إلا بكيفية سقيمة على قاعدة التشابه، فيقول المتوحش في نفسه مثلاً "أضرمت النار في كوخ عدوى لأني أمقته، وأضرمت الصاعقة النار في كوخي فهي إذن تمقتني" وعلى هذا النحو كان الإنسان الأولي لا ينفك يرى – في جميع قوى الطبيعة ووراء كل الأعمال الطيبة أو الهائلة – شخصية واردة وضميراً مثل ما عنده من الشخصية الخاصة والإرادة الذاتية من حيث كونه عاملاً شاعراً.

ولم يكن الإنسان يدرك الفرق بين الكيان الحي وغير الحي، فكل ما يتحرك أمامه فهو حي وعلى ذلك فهو مريد. فالشمس التي تشرق وتقطع السماء وتغرب، والريح التي تهب، والرعد القاصف، والبحر الحامل للفلك، كلها في عرفه شبيهة به في غدوه ورواحه ونومه وبطشه، إلا أنها أقوى منه، فهي تلعب بحياته فلابد – في اتقاء غضب هذه القوى الهائلة – من تقديم القرابين ورفع الدعوات ما دام يستشعر السلامة والراحة في اللياذ بمثل هذه الوسائل.

ثم أقنعته الرؤى التي رآها في أحلامه بوجود كائنات غير منظورة لا أجساد لها تغشى الإنسان في بعض الأحيان. فإذا وقع أي حادث من خير أو شر مطابقاً لوقت الرؤيا اقتنع بأن للأرواح أيضاً الأثر والنفوذ في وجوده ولا مفر من ذلك.

ولا نزال نرى في العقول المنحطة إلى الآن مثل هذا الضرب من رابط الافكار كتيمن اللاعب وتفاؤله والاعتقاد بالأحلام والخوف من يوم الجمعة

والتشاؤم من عدد ١٣. وكلها تشبه خزعبلات المتوحشين. ومما يذكر أن بعض العبقريين شاطروا العامة هذه الأوهام فكان كثير من عظماء الرجال يصدق بوجود نجم له خاص به.

أن الخوف وعاطفة التبعية والرجاء وفطرية ترابط الأفكار هي الأصل إذن في عاطفة الاعتقاد والسبب في وجود الآلهة الأولى. ولما كانت هذه العواطف موجودة أيضاً عند الحيوانات فقد أدت إلى عين النتائج السالفة الذكر، فالكلب يتوقع من سيده كل شيء فيخشاه ويخدمه ويرجوه ويتملقه، كما يفعل المتوحش أمام صنمه، إلا أن الكلب يضيف إلى خضوعه هذا عاطفة الحب، وهي أشرف من عاطفة الرعب عند عبدة الأصنام وأقرب إلى العبادة الخالصة التي اختصت بها الشعوب المتحضرة معبوداتها بعد ذلك.

ولم يهتد الأوائل بعقولهم إلى الآلهة المميزة بذواتها، فالمتوحشون الذين رأوا البندقية في أول مرة وما تقذف به من النار والموت جثوا أمامها. وهذا ما دل على أن الرهبة التي استولت على الأوائل الجهلة – من سطوة القوى الخارقة للعادة.. قادتهم إلى كثير من الخرافات قبل أن يستطيعوا إدراك ذوات مميزة أوجدتهم وسادتهم واستحقت عبادتهم. ومعنى هذا أن عاطفة التدين جاءت في العالم قبل الآلهة، والبرهان ما نراه عند المتوحشين المنحطين الذين لم تدر بخلدهم فكرة الألوهية مع أنهم من أشد المخلوقات ذهاباً مع الخرافات وباطل المعتقدات. وفي استراليا وأفريقية قبائل لا تعرف إلهاً ولها اعتقاد ثابت بالأرواح والطلاسم وشرور قوى الطبيعة.

هكذا كان مبدأ المعتقدات، فلا يوصف بعد ذلك بأنه وليد الطموح إلى اللانهاية، أو ابن الحاجة إلى إيضاح ظاهرات الطبيعة ووجود العالم، فلم يكن الأول ليعرف هذه المطامح، ولا كان بحيث يجد من نفسه دافعاً إلى هذا الاطلاع، ومثله في ذلك الطفل فهو شبيهه من كل وجه.

ومما يذكر أن الفلاح – القريب من المتوحش بجهله وسرعة تصديقه – لم يتحرك قط لجمال الطبيعة، ويدهشه إعجاب أهل المدن بجبله وغابه، ولم يتساءل. قط كيف خرجت السنبلة من الحبة، ولماذا تنتج البذرة شجرة البلوط.

إن الصفة المميزة للجهل المطلق هي عدم الدهشة، وعدم التفكير في الصعود إلى الأسباب. والطبيعة الأولى لا تبحث عن إيضاح الظاهرات. أما العجز عن الدهشة من أغرب الأمور فمسألة لاحظها السياح. ومن ذلك أني.

كنت بمصر وكان معي أحد زعانف السوريين لم ير فيما عاش قطاراً حديدياً فادنيته من الطريق الحديدية ولم أخبره بما سيرى. وبعد قليل علا في الجو صفير الأدهم الحديدي ثم مر كالبرق الخاطف. وكنت أنتظر من صاحبي السوري دهشة مما رأى فلم يبد على وجهه شيء وما زاد بعد قليل من التفكير عن قوله "الله أكبر".

ولقد جرت العادة بإكبار أسئلة الأطفال ولكن الطفل لا يلقي أسئلته الكثيرة إلا ليشغلك بنفسه. أما هذا العالم الجم الشئون الممتلئ بالأعاجيب فإنه لا يبعث فيه أية دهشة أو أي تعجب. ومن هو ذاك الطفل الذي تأثر

برؤية الجبال أو بجمال غروب الشمس! أن الإنسان الأول لا يختلف عن الطفل بهذا الصدد في شيء، فقد يمكن أن ترعبه الظواهر الكونية ولكنها لا تدهشه، ولا تسمح له عقليته بالتفكير في تتبع أسبابها، ولم يصل العقل إلى ما وصل إليه عند (نيوتن) – إذ تساءل عن سبب سقوط التفاحة إلى الأرض، واهتدى الى أنه القوة التي تحرك العوالم – إلا بعد أن قطع شوطاً بعيداً في مضمار التقدم. وليست الإجابة بأن التفاحة سقطت إلى الأرض بإرادة عليا من الأجوبة التي تعد مجيئاً للمسبب المنظور بالسبب. على أن بعض العقول المستنيرة اكتفت زمناً طويلاً بهذه الإجابة بعد أن كانت العقول التي تقدمتها لا تكلف نفسها عناء التساؤل. فبني على هذا أن الناس عاشوا قروناً طويلة كالأطفال أو كصقور الغابات يطالعون الشمس في كل يوم ولا يتساءلون قط عن القوة التي أصعدتها الأفق في الصباح وهوت بها إلى الغروب في المساء.

ترجع أصول المعتقدات كلها إلى ثلاثة ضروب اعتيد اعتبارها الأدوار الثلاثة المنظمة لتطور الدين: فالضرب الأول الوثنية، والثاني الشرك أو تعدد الآلهة، والثالث التوحيد. وليست الفروق بين الديانات المنطوية تحت هذه الضروب من الوضوح بحيث يمكن الاستدلال بها على ارتفاعها وضعتها تبعاً لمراسمها وشعائرها، غير أن الترتيب الذي ذكرناه لا يخلو من صحة ودلالة على أمكنتها من الرقي.

وترتكز جميع المعتقدات من أدناها إلى أرقاها على مبدأ الروحانية نعني على ما يرمي إليه الناس من اعتقاد الحياة في كل ما خرج عن دائرتهم فيعزون إلى جميع الأشياء حياة على وفق تصورهم، مع ما يتبعها من

الأعمال وإلحاح والرغبات والشهوات. وكلما زاد عدد الأشياء التي تشملها الروحانية المذكورة زادت ماديتها. وكلما تعددت الآلهة كانت الديانة من نوع الديانات الأولى. فالمتوحش كما ذكرنا ما انفك يعزو مثل أفكاره وعواطفه وإرادته إلى الأحجار وقطع الأخشاب والأشجار والحيوانات، وهذا ما عنيناه بقولنا "وثنية".

ثم استنار العقل البشري بعد ذلك بعض الاستنارة فحصر حدود الروحانية فارتقت، ولم يعد الناس يؤلهون إلا القوى الكبرى في الكون ويتصورون وراء كل منها كياناً، ذاتاً غير منظورة، ترأسها وتتصرف فيها. وهذا ما عنيناه بقولنا "الشرك أو تعدد الآلهة" وفي الأساطير أن (أبولون) كان يرشد الشمس في سيرها و(شرش) ينضج الحاصلات ونحت الآلهة الكبرى آلهة ثانوية للرياح والينابيع والغابات. وهناك بعض الآلهة مثل (جوبتر) له الإرادة العليا الشاملة، يتفوق على نظرائه ويشرف عليهم ويستغرقهم. وكذلك تتمشى الديانة شيئاً فشيئاً إلى التوحيد. حتى إذا لم يعد يرى الإنسان خارج الوجود إلا إلهاً واحداً قديراً خالقاً متصرفاً في الخلق محجوباً عن عباده أبدياً لا يتغير فهناك يصح القول بأنه وصل إلى أرقى ما أوصلت إليه الفكرة الأساسية الهامة الباطلة نعني فكرة الروحانية التي سلف ذكرها. إلا أن الإنسان لم يسلم من الخطأ فالإله الذي يتصوره لا يختلف عنه في شيء من حيث ميوله وغضباته وغيراته الخ وكل ميزة هذا الإله أما هي قدرته وأبديته فقط (هذا رأي المؤلف).

ونذكر عبادة الموتى التي انتشرت منذ نشوء الجماعات البشرية وكانت أساساً لأغلب الأديان فنقول: أنها ليست إلا صورة أخرى من الروحانية.

إذ من الطبيعي أن نعتبر الأرواح التي لابست الأجسام وقاسمتنا العيش ونعرف لها قيمتها ونتصورها مثلنا سواء بسواء، ولو قيل أنها ميزت بعد مفارقة الأجسام بقوة كبرى واختصت بالرقي في الجو وميزة الانتقال إلى كل مكان والظهور للناس في الأحلام.

وعند ما يعتبر المرء الروحانية منبعاً لجميع الديانات يسهل عليه فهم اختلافاتها بحسب الشعب الذي يدين بها بل بحسب الفرد الجاري على سننها. فالإنسان كما قلنا أوجد آلهة على ما تصور بخلاف ما قيل في الإنجيل.

ولقد كانت هذه الآلهة قاسية سفاكة للدماء أيام كانت القوة الفظة هي المتحكمة في الأرض. ثم تلطفت قسوة الآلهة بعد ذلك، ولكن بقي فيها ما بقي في قلوب الناس من عدم التسامح فأرحم الآلهة لا يرحم عدوه. ولقد استأصل (نيرون) و(دومتيان) شأفة المسيحيين باسم (جوبتر) فأشعل المسيحيون – بعد ذلك بمدة – نار محكمة التفتيش وذبحوا إخوانهم باسم إلههم إله المحبة.

ومن الروحانية – التي تجعل الإله شبيهاً بمن يعبده – نفهم أيضاً كيف تصوغ الشعوب أديانها على ما ترى. وندرك أن الحكم على تطور ديانة أي جنس – بناء على اسم هذه الديانة – من الأحكام الباطلة، ففي كل ديانة كبرى من الأديان الحاضرة يستطاع تلمس الأدوار الثلاثة للتطور، من وثنية وشرك وتوحيد، كما يوجد المتوحش والمتبربر تحت طبقة المتحضر في كل شعب، وكما يوجد المقطع الواحد والأشكال الاولى للغة في كل من لغاتنا الحاضرة.

وهناك فرق بين مسيحية فيلسوف مثل (بسكال)، وبين مسيحية روسي

تقي يشعل مصباحه أمام الصور المقدسة، وبين مسيحية قروي إيطالي يصلي لعذراء قريته ويسب عذراء القرية المجاورة، كالفرق بين التوحيد المحض ووثنية التوحش وشرك الأقدمين. أن التقي الروسي يعبد صوره المنحوتة كما يعبد إنسان (ملجاش) إلهه المسمى (جرى جرى) والإيطالي شبيه بأجداده الرومانيين الذين كان عندهم من آلهة (جوبتر) و(جونون) بعدد ما كان لهم من المدن والمعابد. ولهذا السبب لا يمكن اعتبار الديانات المعزو إليها التوحيد كاليهودية وغيرها كمثال أتم للتطور الديني، فقيمتها تقاس بقيمة الشعب الذي يدين بها وأحياناً بقيمة الفرد الخاضع لأحكامها.

وبما أن الوحدانية هي منبع الأماني التي سرت الإنسانية وعزتها وسيرتها في طفولتها وشبابها قرون طويلة باسم الأديان فبديهي أنها إذا زالت بعد بلوغ دورها الأخير وهو التوحيد – عد هذا الزوال خطوة أخرى فريدة في سبيل فوز العقل المحض. وبهذا الاعتبار تكون ألوهية السكون التي لا تقول بذات إلهية خارجة عن العالم، والبوذية الجحودية للفلاسفة الهندوس؛ منتهى التعاليم الدينية السامية التي أتيح للناس الوصول إليها. غير أن هذا لا يصح إلا نظراً فقط، أما في العمل والواقع فإنك ترى جماهير المعتقدين المتدينين لا يرون في ألوهية الكون إلا وثنية غامضة، ولا في البوذية المتساهلة في قبول جميع الآلهة إلا شركاً لم يعهد مثله في سائر الأديان. والمعلوم أيضاً أن البوذية بنقلها إلى الصين واليابان قد جمعت حولها الملايين من التابعين يسجدون أمام أسخف الأصنام ولا يأخذون شيئاً من معتقداتهم عن كتب الفلاسفة البوذيين الهندوس.

ولقد أدرك رجال الدين الشرقيون أن كل ما يطرأ على المبادئ الراقية

إنما يتسرب إليها من تدخل الطبقات الجاهلة في أمرها، فلم يكشفوا للجماهير عن سر فلسفتهم المؤلمة للكون أو الجاحدة به، لأن الجماهير لا تفهمها وإذا أطلعتها بذهنها الضعيف خولت أنفسها استقلالاً أدبياً تسيء استعماله فيعود عليها بالضرر ولذا أمرها الكهنة بعبادة الآلهة الماثلة أمامها وهم يعلمون بطلان أمرها. أما الذين أدرك الكهان كفاءتهم فقد أطالوا عليهم الامتحان قبل أن كشفوا لهم عنها. ومما يذكر أن المبتدئين في تلقي العلوم الدينية ما كانوا يسلكون في التلمذة إلا بعد إعداد طويل، لأن الذهن السيء العدة لا يستوعب مذاهب الدين، فلابد من الطواف به على جميع وجوه التطور الديني شيئاً فشيئاً، ولا يستلزم هذا إلا بضع سنوات عند الفرد، وإن استلزم قروناً عند أي شعب من الشعوب.

إن العقل الشرقي أصلح من عقلنا في فهم قانون التطور، فقد علم هذا القانون الاسمي على ضفاف (الكنج) وقت أن كانت أوربا مجروفة في تيار الأعاجيب وفاسد المعتقدات وكان الأمر كذلك على ضفاف (النيل) أيضاً. وسنرى فيما يلي كيف سارت الوثنية العامة بجانب فلسفة بضعة من المفكرين وكما وجدت بعد ذلك الوثنية المنحطة عند زعانف اليونان بجوار النظريات السامية التي قال بها (سقراط) أو (أفلاطون).

ولا ننكر أن بعض العقول السامية ارتفع في أوائل زمن التاريخ إلى معقولات غاية في السمو بشأن الكون والروح والآلهة، ولكن هذا الارتفاع في حكم النادر الشاذ أما مجموع الناس فلم يكد يصل إلى التوحيد إلا لماماً. وما كان توحيد العبرانيين نفسه إلا مشوباً بالشرك (تعدد الآلهة). والأصل العام في معظم المعتقدات الدينية كان عبادة قوى الكون مشخصة

في ذوات، وعبادة الموتى. وكل أساطير الأولين صادرة من أحد هذين المنبعين أو منهما معاً على الأغلب. ولقد ترتقي الديانة تبعاً لمستوى عقل الشعب الذي يدين بها فتبلغ حد الشرك المحصور أو تبقى في وثنية غليظة، ولابد في الحالين أن يسودها نظام التضحية.

وتولد هذا النظام من الحاجة إلى تسكين الآلهة – التي كان يقال أنها لا يهدأ لها غضب – إذ الطبيعة تضر بثورتها أكثر مما تنفع، ثم من الرغبة في رضاء أرواح الموتى إذ المفترض وقتها أن الناس إذا فارقوا هذه الحياة احتاجوا في مقامهم الجديد إلى متاع كالذي كان لهم في الحياة، فكان القوم يحيطون سكان القبور بكل ما كان يروقهم في الحياة، من مثل الأطعمة اللذيذة والأسلحة النفيسة والحيوانات المعززة والنساء والعبيد. وإذا كان الموتى من الملوك أزجيت إليهم مواكب الحراس والعسكر. ولكن هذه الذوات المحبوبة المرهوبة التي ألهتها الخرافات إنما كانت كالظلال الزائلة، ولذا لم تكن القرابين تقدم إليها إلا أثراً بعد عين، فتدفن مع الموتى أو تحرق معها. أما الحيوانات والنساء والعبيد فتذبح على القبر.

ولقد عمر نظام تقديم الضحايا طويلاً، ولم تسلم منه بعض الشعوب المتحضرة، إذ كان معمولاً به في عهد إمبراطرة الرومان.

روى (هوميروس) أن (أشيل) ذبح من جنود (تروادة) على روح (بطروقل). وترى في الهند إلى اليوم أن النساء اللاتي يضحين بأنفسهن فيحرقن مع أزواجهن يعتقدن أنهن ذاهبات إلى خدمة هؤلاء الأزواج والعناية بهم في الحياة الأخرى.

وشوهد أن عبادة الموتى عريقة في الإنسان. وأنها من أشد العقائد تأثيراً في النفوس. وكان أساسها في البدء الخوف. ثم اعتقد الناس من الأحلام أن أرواح الموتى تحلق فوقهم لمعاكستهم، خصوصاً إذا لم تنل حظها اللائق بها في القبور. أما نحن الذين لا نعتقد بالخيالات فلا أقل من أن ترى الرابطة الوثيقة الخالدة التي تربط الأجيال الحاضرة بالماضية والتي لم تجيء بعد، ونسمع في أعماق نفوسنا أصوات الأموات تملى علينا ما نعمله. ولا بدع فتقدمنا إنما هو نتيجة الجهود الطويلة التي بذلها أجدادنا، ولذا فلا نستغرب الإلهام الخفي الذي دعا المتوحش القديم وفيلسوف العصر الحاضر إلى اداء الاحترام للقبور في كل زمان ومكان.

وسنعود في تفصيلنا للأديان القديمة إلى الكلام عن عبادة الأجداد لأنها أساس المعتقدات. ولا يخفى أن عالم الأساطير الدينية لا نهاية له، ولم نتوصل نحن إلا إلى بسط مجمل ذلك الأصل الخفي المثبوت في الطبيعة البشرية.

ويختلف عالم الأماني باختلاف الشعوب وأفكارها ولا سبيل إلى الإلمام بروح جنس من الأجناس إلا بالتعمق في درس معقولاته الدينية، ومعرفة الوجهة والسمو اللذين جعلهما قبلة لخالد الرجاء، والرهبة والحب والبقاء.

٢

ترقي الأخلاق والقانون

لم يولد الدستور الأدبي الاخلاقي معنا كما لم تولد العاطفة الدينية، فإذا وجد هذا الدستور فإنما كان وجوده بعد أن غرسته في نفوسنا الوراثة

في قرون طويلة.

ويختلف هذا الدستور عند أجناس البشر كما تختلف اللغات والأديان وسائر الأنظمة، ولا وجود لدستور أدبي عام شامل في العالم، بل فيه أخلاق محلية وقتية. وصحيح ما قاله (بسكال) من أن النشل وغشيان المحرمات من الأقارب وقتل الأولاد والآباء كان لها مكانها بين الأعمال الفاضلة، وسنرى ذلك أثناء التغلغل في تفصيلات العادات في الحضارة العتيقة، ونلاحظ وجود أعمال تخالف ما عندنا الآن كل المخالفة ونلتقي بأمور غاية في الغرابة كان يقرها ويوافق عليها الدستور الأخلاقي. ولما كان الواجب علينا عدم الخروج عن الإنصاف الفلسفي واجتناب التحيز وإطراح المدح والذم فإنا نضع أنفسنا أمام الضمير البشري ونقنعها بأنه –كالذكاء وجميع القوى الأخرى – خاضع لقانون التطور.

وهناك مسألة من أكبر المسائل خطورة أراد بعض العقول الكبيرة حلها على خلاف ما يوحي به العلم استسلاماً لما قوي على النفس من فاسد الأحكام والخزعبلات فزعم (كنت) و(كوندورسيه) و(بوكل) وغيرهم أن الدستور الأخلاقي لكل الشعوب واحد لا يتغير على مدى العصور.

ومن الصعب على الإنسان أن يدرك السبب الذي حدا بعض الفلاسفة الى توليد مثل هذا الشأن. ولا شبهة في أن (بسكال) كان ثاقب الذهن إذ قال أن الصواب في سفح من جبال البرينات (البرانس) خطأ في السفح الآخر. ولنضرب للقارئ مثلاً بعادة كادت تكون عامة عند الشعوب المتوحشة وأوائل البشر وهي عادة قتل الشيوخ بزعم تخليصهم من عجز الشيخوخة، والحقيقة أن

قتلهم إنما هو للتخلص من إطعام من لا فائدة منه. ولم يكن يخطر على بال من أتوا هذه العادة ان فيها أي شيء من الإجرام. لا بل كانت الديانة تأمر بها وتقام لإعدام القريب المسن الحفلات وتختم بالمآدب أما الآن فالعادة المذكورة عند جماعاتنا المتحضرة جريمة من الجرائم العظمى، وندر ما تقع، وإن وقعت قوبلت بالسخط والمقت من القاصي والداني، حتى أن مشرعي الوقت الحاضر لم يحتاجوا إلى مكافحتها بقانون خاص يسن لذلك. وفي قوانيننا الآن ما يأمر الأولاد بإعالة أقاربهم عند العجز عن الكسب، وهو قانون ينفذه الجميع تنفيذاً معظمه بالرضى والاختيار.

وتكاليف الأخلاق قوية فيها ما يدعو إلى سفك الدماء وإتيان المنكرات، فمن ذلك أن الاستراليين يتصورون أنه لابد من الانتقام للميت لتبقى روحه في طمأنينة.

حكى الدكتور (لا ندري) أن استرالياً فقد امرأته فاعتزم الذهاب إلى إحدى القبائل البعيدة ليقتل منها امرأة على روح امرأته، فهدده الأوربيون الذين فطنوا لمراده بالسجن فتردد وبقي يكافح نفسه أشد كفاح ويتكبد آلام وخز الضمير على جبنه عن الانتقام لروح زوجته، ولما عيل صبره انطلق ونفذ ما اعتزمه وعاد مبتهجاً راضياً كمن أخلص في أداء واجب عيني.

ولقد يعجب المرء بالطريق الذي سلكته الإنسانية للوصول إلى دستور أخلاقي يخالف ما كانت عليه في أوائل أمرها، لأن الدستور الأولى مدعم مقوي بالوراثة والأقدمية وأوامر الدين، فلزم أن تكون العوامل الأخرى التي أخضمته غاية في القوة بحيث قلبته وعدلته كل التعديل.

ولم يكن أنصار المبدأ القائل بالدستور الأخلاقي العام يحارون إذا عرضت عليهم أمثلة من نوع ما ذكرنا فقد كانوا يكتفون قولاً بأنها من امثلة المتوحشين ويحقرونها، فيخيل إلى المرء أن هناك هوة عميقة تفصل بين الأجناس المتوحشة وأهل الحضارة. أما اليوم – وقد دل العلم على ترابط الطرفين بدرجات دقيقة وارتباطهما معاً بالحيوانات – فمهمة الفيلسوف والمؤرخ تدعو إلى استكشاف أسباب الترابط وسيرها وتفهمها في الدستور الأخلاقي، ككل ما اختص به الإنسان.

وعوامل الدستور الأخلاقي غاية في الكثرة. منها ما يتبع أخص الأمور النفسية الدقيقة فيعمل في بواطن النفس أعمالاً تتفاوت قوة وتختلف نفوذاً في العوامل الأخرى تبعاً للأمكنة. وعلى هذا نقول أن تتبع التطور الأخلاقي للبشر غاية في الصعوبة، بل لايزال إيضاحه التام متعسراً لجدة علومنا التجريبية ونقصها، فلا محيص إذن من قصر الدلالة على المميزات الكبرى فحسب.

وينبغي أن نقطع النظر عن النفوذ الديني الذي جرى الوهم قديماً بأنه شديد الأثر في الأخلاق. وهو في الحقيقة ضعيف ولا يعد إلا في مرتبة ثانوية بحيث لا يصح أن تزجي العاطفة الدينية والشعور الأخلاقي لشعب من الشعوب في سبيل واحد، وإلا وقعنا في خطأ زمان الجهل الذي كنا نحكم فيه على الأجناس بالقياس على أنفسنا لاستحالة خروجنا عن دائرة ذواتنا ولوجود الخرافات التي كانت تحول من دون الملاحظة الصحيحة.

خذ مثلاً ما كان عندنا في الغرب من بضعة قرون. فقد تسلم رجال الدين

القيادة الخلقية وشرعوا يعملون علينا أدق تفصيلات مسلكنا في اليوم باعتبارها إرادة إلهية. وهذا الفعل وإن كان من مستحدثات العصور الحاضرة فلا جرم أنه يدهش بعض الشعوب الشرقية التي ترى الآلهة أسمى من أن تتنزل إلى الاشتغال بمسلك الناس بعضهم بإزاء بعض. بل تدهش اليونان والرومان الذين ما كفاهم أن أنكروا نسبة الأخلاق إلى آلهتهم حتى جعلوها أيضاً مثالاً للنقائص تسودها الشهوات كالبشر. ولم يروا فيها إلا القوة العظمى فاضطروا إلى تمجيدها. واتخذت الآلهة هذه القوة وسيلة لإرضاء أهوائها ولم تعرف حدة لذلك إلا حد مصالحها المشتركة والمصلحة العامة (لاولمبيا) فإذا عدا إله على آخر حلا الخلاف فيما بينهما كما يحله الرجل يقتل ثور جاره أو عبده أو امرأته بأداء الدية، ولم يخطر ببال إله أن يتصور وجوب التماس المغفرة من (جوبتر) كبير الآلهة أو (فينوس) آلهة الجمال. وكان السحر وحده هو الخطيئة والإساءة إلى الآلهة، ومعلوم أن (السيبياد) لم يتهم بتشويه تماثيل (مركور) حتي جزع الأثينيون على بكرة أبيهم وبوشر البحث عن المجرم لمعاقبته، لأن القوم اعتقدوا بأن غضب هذا الإله يودي بالمدينة إذا ترك المذنب وشأنه. ولم يبحث أحد في أمر من فعل الفعلة أكان متكبراً أم طماعاً أم فاسقاً أم قاتلاً لأن هذا البحث من شأن من يضره الجاني بجرائمه. ولم يفكر أحد في أخذ المجرم بجرائره باسم الآلهة لأنها لا تحفل بما يصنع الرجل.

وظلت الإنسانية قروناً طويلة تخشى الآلهة باعتبارها ذواتاً قاسية صارمة لا ضابط لها فيجب تسكين ثورتها واكتساب رضاها بإقامة الاحتفالات وإسداء الاحترام وتقديم القرابين. ولم يقل أحد أن أفكار الإنسان وأعماله التي يأتيها في كل يوم تستلفت نظر الآلهة. ولم يتساءل

فرد واحد فيقول كيف يتفق لآلهة قاسية – ترسل الصواعق والأوبئة والطوفان على البلاد الآنسة، وتعجبها الضحايا الدموية – أن تتبسم من أعلى السماء لأعمال غامضة غريبة يعملها البشر تذللاً وتزلفاً.

قلنا أن الديانة وهي واجبات الناس نحو الآلهة لم تكن ذات صلة بالدستور الأخلاقي وهو واجب الناس بعضهم نحو بعض، ونزيد على هذا أن مبادئ أحد الطرفين كانت في الغالب مضادة لمبادئ الطرف الآخر. وبديهي أن الأديان التي تأمر بنحر الأسرى أو تعذيبهم لا تكون إلا حجر عثرة في سبيل تطور الأخلاق. ومن ذا الذي لا يقول أن الإله الفينيقي أو الكنعاني – الذي يمد ذراعيه الحديديتين المحمرتين كالجمر لفم الأطفال الذين تأتي بهم أمهاتهم – أو (كرشنة) – الذي حتم على جميلات الهند الاستسلام لكهانه – من آلهة الأخلاق الكريمة. مع أن نساء (سورية) لم يكن أقل شفقة على أولادهن من إخلاص نساء (كجرات) – إقليم بالهند الغربية – لأزواجهن. فأية قوة تملك في مثل هذه الأحوال، ناصية تلك العاطفة الدينية التي لا تكتفي بصدم أبسط شعور خلقي بل تضاد الميول القوية أيضاً وتتغلب عليها.

إن أول الديانات التي جعلت أساسها الأخلاق – نعني الواجبات المتبادلة بين الناس – ديانتان: البوذية والمسيحية. ولهذا السبب تمكننا من قلب شئون العالم مع أن العاطفة الدينية فيهما لا تتمشى دائماً مع الشعور الخلقي، فالرجل الجم التي لا يكون دائماً أبداً أكثر الناس إحساناً، بل ربما كان كثير الإساءة أحياناً والشعب الكثير التقي هو الأقل تسامحاً وتساهلاً فلا يحجم عن إتيان أشد أنواع التعذيب، وما كانت محكمة التفتيش إلا من

عمل أشد الشعوب الأوربية تديناً. وعلى هذا فالعوامل التي ترقي الخلق أو الدين إنما هي غاية في الاختلاف بل ربما كانت متضادة.

وإذا لاحظنا ان البوذية والمسيحية هما أول الديانات الأخلاقية التي عرفها البشر فلا نعني بهذا القول أنهما سودتا الخلق في العالم بل وافقتا الشعور الخلقي وترقيه ولم تسبقاه لأنهما لم توجدا إلا بعد أن بلغ الشعور الخلقي درجة ما من الرقي، فالتقطتا روح الإحسان الذي بدا في العالم بعد أن كان مجهولاً طائراً في أعاصير البربرية. ولم يبد الإحسان بين الجماعات إلا يوم أن مالت إلى السلم وصار تنازع البقاء أقل قسوة مما كان عليه.

خرج الخلق الذي نفهمه اليوم من الوحشية الأولى ببطء كبير. وبينا هو يبدو على الأرض شيئاً فشيئاً إذا بأصحاب الأحلام يريدون أن يتصوروه نازلاً من السماء وأن يلحقوه بالمبدأ الديني. ولكنه سيبقى دائماً في نظر الفيلسوف مميزاً على حدة فتولد الآلهة وتكبر وتفنى ويبقى ظلها خارجاً عن الانسانية أو يمحى، والخلق لا ينقص فتيلاً، فهو منا فينبغي أن يبقى كذلك. وهو ابن الضرورات التي تحكمنا، والمعين لنا على احتمالها. وهو العنصر الأساسي لجماعاتنا فلا محيص من ترقيه معها ولا يستطاع القول قط بأنه قد تكون وتوثق أمره إلا إذا غرسته الوراثة في قلوبنا ومنحته قوة الغريزة. وإنا لمدينون لبربرية الأولى بأصل ما وصلنا إليه الآن من الأخلاق.

ولقد بسطنا – في غير هذا الكتاب – العوامل المختلفة للخلق ونفوذ كل منها فيه فنقتصر الآن على تهديدها من دون أن نبحث في تفصيلات عملها فنقول: أن أهم العوامل في ترقي الخلق هي: الانتفاع، والرأي،

والوسط، والميول، والوارثة. ولا تدخل فيها الديانات للأسباب التي ذكرناها فيما سبق.

وإذا أردنا أن نعزو إلى الخلق أرقى مبدأ ممكن فظاهر أن عامل الانتفاع هو – من دون سائر العوامل المؤلفة له – أكثرها عملاً وقوة، ولا نعني هذا إلا الانتفاع إلا على الخاص بالجماعة، وهو الذي يدعو الفرد إلى الإخلاص للصالح العام للمجموع. وكلما اتسع نطاق اشتراك الناس كبرت واجبات كل مشترك، وزادت أهميته. ويمكننا أن نعد الآن كثيراً من تكاليفنا الأدبية متعلقاً بطمأنينة النوع البشري بأسره. أما التي تتعلق برفاهة بلد أو جنس فقط ويعبر عنها بأرقي تعبير – وهو الوطنية – فإنها وإن خلت من المرمى العام ترقي عاطفة حب الغير وتخرج المرء من ذاتيته فتهبه أشرف الإخلاص.

ولقد رأينا الناس في أوائل أمره يجمعون من ضعفهم ويجتمعون جماعات لإحسان مكافحة المخاطر المتنوعة المحدقة بهم من الطبيعة أو من أشباههم، فكان على كل عضو في تلك الجماعات الأولى خدمة يؤديها في مقابل الخدمات التي يؤديها له الآخرون. ومن هنا أصل الواجبات المشتركة المتبادلة. ولم يمض على الناس زمن حتى عرفوا أن عدم النظام يودي بالجماعة، وأن الجماعات التي تمزقها الانقسامات الداخلية لا تلبث أن تهلك؛ فعامل كل منهم شريكه في الحياة حتى في أشد أنواع التنازع بغير ما عامل به عدوه. وجعل يرعى حرمة حياة شبهه، أو حياة البالغ القوي النافع، لأن حياة النساء والأطفال والشيوخ وكل من يعال ولا ينفع – بقيت طويلاً بغير تقدير.

ونما بجانب احترام الحياة احترام الملك، لأن الظلم والسرقات كانت تولد المشاكل الخطيرة. وعلى هذا الأساس أقيم الخلق الأولي وما يتبعه من الحق المماثل له. ولا جدال في تمشي الحق دائماً مع الخلق لأن الحق عبارة عن الخلق مقنناً. وقد ولد مثله من الضرورات التي توجدها العادات غير أنه لم يسبقها. ويختلف الحق عن الخلق بأنه لا يشمل إلا الأوامر الخاصة بالأعمال التي لم تصبح بعد غريزية.

والخلق الذي تركزه الوراثة – فينتهي في بعض الأحوال بأن يصير من الدوافع المطلقة يخضعنا حتماً لأحكامه، فالرجل المتحضر لا يدور بخلده اليوم أن يأكل المسنين من أقاربه، فليست هناك من حاجة إلى مادة قانونية تحرم عليهم أكلهم، لأن العواطف الوراثية التي تراكمت على توالي القرون كفت في منع عودة أمثال هذه الأعمال. أما الذي يرغم المشرعين على سن القوانين فأعمال كالسرقة أو التزوير أو نحوهما مما لم تقو عليه بعد عواطف الوراثة كل القوة. وليس الخوف من الشرطي مبدءاً خلقياً، ولكنه لما كان يقوم مقامه انتفعت به الجماعات وستنتفع إلى أن توطد الوراثة مبادئ الخلق توطيداً راسخاً في النفوس.

ويخضع الحق لقوانين التطور العامة خضوع الخلق ولا وجود للحق الطبيعي كما لا وجود للخلق الطبيعي.

ومن النبو عن العلم القول بأن مجرد توصل الكيان إلى الحياة يجلب معه الحقوق، لأننا لا نعترف بأي حق للحيوان الذي يولد، وللمتوحش الذي نحاربه ونسلبه ما يملك. بل لمن هو أضعف منا على وجه العموم.

وإذا حدث وظهر على كوكبنا جنس أرقى من النوع الإنساني بمقدار سمو هذا النوع عن الحيوانات فالثابت المؤكد أن يستخدم هذا الجنس طوائف البشر كما استخدمت هذه الطوائف الحيوان الداجن. ويمحي الحق البشري – نظراً وعملاً- محو أمر عرضي لا استقلال لوجوده عن الظروف.

إن الشعوب الصغيرة لم تسلم في أيامنا هذه بأوروبا المتحضرة من الفتح والاستغراق إلا لعدم اتفاق الشعوب الكبرى على ملكيتها وطمع كل منها في أن تكون له فريسة لا يشاركه فيها سواه. وفي اليوم الذي تزول فيه الموازنة الأوربية المعروفة ويحل محلها تفوق دولة أو اثنتين لا ترى البقية بداً من الخضوع وإلا أصابها الزوال، وأبعد حقها عن القسطاس المستقيم للأمم.

إن الحق الطبيعي الصحيح السائد بمفرده في تاريخ البشرية هو حق الأقوى. وما خلا هذا فلا توجد إلا حقوق محلية جعلت لتخفيف الحق الطبيعي بعض التخفيف، وقد اختلفت ضرورة باختلاف الشعوب.

والظاهر أن الجماعات البشرية الأولى قد أنفقت كثيراً من الوقت حتى فهمت أن الحق – الذي يقع على إحداها بمقتضى حكم الأقوى – يقع في النهاية على سائرها. فلم تتدخل حكومة الجماعة في منازعات الأفراد إلا في الزمن الأخير لتتولى عن الجماعة عقاب المذنبين.

ولقد اعترفت القوانين الأولى كلها بحق الانتقام لمن يقع عليه حيف. واستمر هذا الحق الشخصي على مر العصور عند أغلب شعوب آسيا. بل عند شعوب أخرى نصف متحضرة كأهل (كورسيكا) حيث يرى الواحد

منهم أنه عار عن الشرف إذا لم يتمكن بنفسه من الانتقام والثأر ممن خاف عليه أو من أهله باعتبارهم جميعاً واحداً في عرف الأمم الأولى.

ولما أريد القضاء على الأحقاد الدموية – التي كانت تضعف الأفخاذ في القبيلة وتفرق بين أفرادها – أخذت الجماعة على عاتقها قضية المظلوم. ولم تتمكن في

أول الأمر إلا من تقرير عقوبة القصاص فالعين بالعين والسن بالسن. ولكن هذه العقوبة أضرت بها فإذا وقع تعد فقدت الجماعة واحداً هو المعتدى عليه ثم عاقبت فأفقدها القصاص واحداً آخر هو العادي. ولذا اتجه فكرها إلى نظام تقاضي التعويض فصارت الجرائم مما يقتضي التغريم لإنصاف المجني عليه. ولم يخطر ببال الجماعة – بصفتها جماعة – طلب الترضية لنفسها من المذنب أو تقرير العقوبات الرادعة وأخذ الطريق على الجرائم قبل وقوعها.

ولم يكن الرأي العام في هذه الأوجه الاولى للقانون بحيث ينحي باللائمة على المذنبين فلم يحسب السرقة والاغتصاب والزنا وقتل النفس من الأمور المزرية بالشرف، فكان المعروف وقتها أن العدل يقضي بالتعويض المالي عن الضرر، فمن تسبب في ضرر ثم عوض عنه بدفع المال فقد برئت ذمته أمام ضحيته وأمام الجماعة.

هذا ما كان عليه الخلق والقانون أثناء العصور الأولى للتاريخ. وقد استمرت هذه الحالات الأولى طويلاً جداً بحيث وجدت آثارها في قوانين وضعية ليس العهد بها ببعيد.

ثم جاء قانون الألواح الاثني عشر فقرر التعويض عن السرقات. ثم جعلت دية الفرد في القانون الجرماني على نسبة طبقته، ففدية الشريف أو القسيس كبيرة أما دية الفلاحين والنساء والعبيد فقليلة.

وإذا كان الرأي العام عند الأقدمين لم ير – في معظم الجرائم – أكثر من ضرر تسهل إزالته فلا ريب في أن الرأي المذكور قد شرع من زمن قديم في إيجاد مبادئ للشرف والوطنية ومحبة المجد والحضارة. وقد وجدت هذه المبادئ بعد ذلك راقية في أقدم الحضارات بحيث صارت أحكام الرأي العام أقوى من أحكام القانون بقطع النظر عن صحتها وفسادها. فبني على هذا أن الجرائم التي استرذلها العرف العام أخذت في التناقص بأسرع مما كانت عليه أمام تهديدات القوانين. وإنا لنرى الآن بعض الجرائم كالزنا والمبارزة قد عجز عنهما الدستور الأخلاقي والدين والقانون لأن الرأي العام لم يمقتها كل المقت.

وللرأي العام من القوة ما يحول به الدستور الأخلاقي والقانون، ولا سلطان لهما عليه. ويقال بالإجمال أن الضرورات توجد الرأي العام، وهو يوجد العادات، والعادات هي الأصل في الدستور الأخلاقي والقوانين.

وإذا ما بقي الرأي العام في موضع واحد لا يتغير عدة أجيال أثبتته الوراثة في النفوس إثباتاً لا يمحى. وكل فعل يقر الرأي العام أو العرف بأنه من مرتبة الخلق - عدة من القرون – لا يلبث أن يصبح غريزة كما هو حاصل عند بعض متوحشي الهند إذ لا وجود للكذب عندهم لأن العرف أنحى عليه منذ بضعة قرون. وما يقال عن الكذب يقال عن السرقة، فهناك

قبائل تموت جوعاً بجوار الأطعمة المعهود إليها بحراستها، ولا تبيح لنفسها المساس بها. ولا ننسى أيضاً ذاك الإعرابي المغرم بالسلب والنهب مع أنه يموت في الدفاع عن ضيفه ولو كان الضيف من أعدائه.

قلنا أن العواطف التي يظاهرها ويحفظها الرأي العام أو العرف تثبتها الوراثة فتصير غريزة لا سبيل للعقل عليها. ونقول أيضاً أن الخلق في شخص أو جنس لا يرسخ إلا إذا صار غريزة. وأنه يجيء من نفسه منذ الولادة ولا يتعلم من الكتب لأنه ميراث زمن طويل، وصدى صوت من زاروا المقابر. وليست المعقولات التي تحوط بها أولادنا ونلقنهم إياها هي التي ترفع مستواهم الأخلاقي وإنما هي جهودنا وأعمالنا الخاصة التي نتركها للخلف.

ولما كان القانون والخلق قد كونتهما التطورات العتيقة البطيئة، وكانت ضرورات البيئة والبناء الاجتماعي تجعل هذه التطورات مختلفة باختلاف الأمم. فإنا نجد عند البحث في الحضارات الأولى مبادئ غاية في التباين تثبت أن لا وجود للحق الطبيعي والخلق العام. ولا ينبغي لنا أن نحكم بالعدم على عادات وأساليب تغاير ما عندنا فكل من جرى على خلق بلاده وزمنه فقد أحسن. ومهمة المؤرخ تنحصر في فهم أصول عواطف الأجداد وإيضاحها من دون أدنى تعرض لنقدها أو الحكم عليها.

الفصل الخامس

نشوء الملكية (حق الملك)
والصناعات والحكومات و ترقيها

١

نشوء الملكية

تبدو لنا الآن أفكارنا في الملكية الشخصية عادلة بسيطة. مع أنها لم تغرس في الأذهان إلا ببطء كبير بعد أن قضى الناس قروناً طويلة على جهل تام بها وإن كانت أحدث عهداً من فكرتي القانون والخلق. ويدل على هذا إنا لا نزال نرى إلى اليوم – حتى في أوربا المتحضرة، وبالرغم من وجود القوانين – آثاراً من أشكالها السالفة.

ولقد عاكست العوامل الأصلية لتطور الملكية عوامل ثانوية عديدة، فوقف ترقيها عند حدود مختلفة لدى الشعوب التي بلغت درجة واحدة من الحضارة. ولا نستطيع هنا إلا بسط الوجوه العامة التي تقلبت على الملكية عند أغلب الشعوب بنظامها الطبيعي. وفي هذا البسط كفاية في الدلالة على أن الملكية خاضعة كغيرها لقوانين التطور العامة.

جهل الأولون الزرع والتدجين فكان معولهم في العيش على الحاصل من صيد البر والبحر. ويؤخذ مما نلاحظه اليوم عند الشعوب المنحطة المتوحشة ما يجعلنا نفترض اشتراك الأقدمين في الأراضي ومجاري المياه، وحصر هذه الاشتراكية في القبيلة الواحدة، فكان لكل قبيلة منطقة صيد برية أو بحرية تدافع عنها وتحميها من كل مغير. وهذا الضرب من الملكية هو كل ما فطن له الأوائل، ولذا لم يرتفعوا الى أعلى من مرتبة الحيوان. ونظرة إلى ما تفعله جماعات النمل في الدفاع عن مساكنها ورد عادية غيرها تقنع بصحة ما ذكرنا.

وتدافع النحل عن خلاياها دفاع النمل، وتحذو الحيوانات المفترسة هذا الحذو، فتذب عن منطقة صيدها. وإذا صح أن فكرة الملكية كانت في شكلها الأول بهذه الكيفية فلابد من وجود نظام الاشتراكية في القبيلة عند جميع الشعوب العائشة على صيد البر والبحر فقط، وهذا هو الحاصل. والأمثلة متكاثرة إلى اليوم في الأوقيانوسية وأفريقية وعند هنود أمريكا، وسنذكر بعضاً منها.

في زيلاند الجديدة قبائل تعيش بالاشتراك المطلق، فأدوات الصيد على نوعية مشتركة فيما بينها عدا الأرض والمياه. وفي أفريقية السوداء – حيث الوحشية التامة – تتبع الأرض من هو أهل للاستفادة بها، وليست للقرى من بقاع محددة، فإذا أريدت إزالتها أزيلت ونقلت إلى مكان آخر لأقل الأسباب.

ولا يعرف ذوو الجلود الحمراء بأمريكا الشمالية اسماً للملكية إلا في أرض الصيد التابعة لكل قبيلة فيدافعون عنها في حروبهم الداخلية وفي صد غارات الأوربيين، وإذا اضطروا إلى التخلي عنها آثروا الموت على تغيير طراز معيشتهم.

وتلاحظ الاشتراكية المطلقة عند الاسكيمو، وهم شعب ينقسم إلى جماعات صغيره، فكل ما لجماعة من الجماعات ملاك لأفرادها، ولا سلطان لأحد على آلة أو أداة إلا وقت استخدامه إياها. وإذا جاء الصيد بحوت أو فقمة قسم بين الجميع. ولا وجود لما يعتبر ملكاً فردياً اللهم إلا القليل من المغانم أو قطع الحطب مما لا يزيد عن حمولة الرجل وبعض المتاع الشخصي كالملبس مثلاً. أما الأكواخ والسفن وأرض القرية فكانت كلها ملكاً مشاعاً للجماعة.

و بعد أن كان الإنسان لا يعيش إلا من الصيد شرع في تدجين الحيوان وطفق يعيش من نتاج قطعانه. ولكن عصر الرعي لم يغير من نظام الملكية تغييراً أساسياً، لأن المرعى يستلزم أرضاً متسعة، وانتشار القطعان ومثله مثل الصيد لابد أن يكون في منبسط من الأرض لا يستطيع ملكه فرد أو أسرة تعجزهما حراسته، ويتعذر عليهما الدفاع عنه، فتحتمت المشاركة على الشعوب الراعية إذن كما تحتمت على الشعوب الصائدة.

خذ مثلاً على ذلك قبائل (الهوتنتو) فمراعيها مشتركة فيما بين رجالها والمواشي أهم ثروتهم. بل نذكر (الشعب العربي) المرتفع عنهم في سلم الحضارة بكثير فقد بقي هذا الشعب في قبائله الراعية على نظام الملكية المشتركة في الأرض، فهي ملك لجميع رجال القبيلة.

ولم تبق الاشتراكية الأولى بين الشعوب التي نالت قسطاً من الحضارات الأولى إلا في النادر. وإذا استثنينا (العرب) الذين أشرنا إليهم – وكانوا في اضطرار إلى الاشتراكية بطبيعة أرضهم وطراز معيشتهم – فلا نستطيع أن

نذكر شعباً من شعوب الحضارة استمسك بالاشتراكية اللهم إلا قدماء أهالي (بيرو) قبل زمن الفتح الإسباني، فكان كل وطني يتزوج في سن معلومة يأخذ بيتاً وقطعة من الأرض يزيدونها له كلما ولد له طفل. وكانت معيشة الآلهة والملك والشيوخ والعجزة على الشعب يعطون كفايتهم قبل غيرهم، وجميع من عداهم مختص بالعمل ولا يستطيع أن يجمع له ثروة لأن كل ما يقع له من الأشياء أو الأقمشة مما ليس له أن يستعمله يجب عليه إرساله إلى خزائن الآلهة أو الملك. وعلى هذا النحو لم يكن عند أولئك القوم أغنياء ولا فقراء بل الاشتراكية المتمناة الآن، والمساواة التي تطلب ولا تنال. ولسنا نعرف كثيراً من تاريخهم لنقول أكان عندهم السلم والرفه والسعادة التي تتمنى في هذا العالم.

أما الاهتداء إلى الزراعة فهو الذي أدى إلى أول تغيير في نظام الملكية ولا بدع فالذي يكد في فلاحة ناحية من الأرض ولا يحصل منها إلا على حصاد ضئيل لا يلبث أن يمر بخاطره وجوب تمتعه بثمرة تعبه.

ولم ينازع الإنسان أحد في هذا الحق يوم أن بدا، لأن المرة الحاصلة لم تكن إذ ذاك على مقدار الجهد المبذول، ولأن وجود الغابات الأولى الكثيفة وما تحويه من طيب الصيد كان محط آمال لافاقيين القليلي الصبر الذين لا يستطيعون التريث أياماً طويلة إلى أن ينبت الزرع وتنضج سنابله.

ولقد كانت الفلاحة من المشقة بمكان. ولذا لم يباشرها الرجل إلا ومعه أولاده ونساؤه وعبيده إذا وجدوا. ثم انضم إليه إخوانه وأقاربه. غير أن الأرض لم تستثمر من ثم بالاشتراك كما كانت مناطق الصيد الكافية في

إطعام القبيلة. فانفرط عقد الأسرات، وانتحت كل أسرة ناحية، وجعلت تفلح لنفسها، ولا تسمح لغيرها بشيء من حاصل كدها. وكذلك حلت ملكية الأسرة محل ملكية القبيلة. ففي الحبشة مثلاً تملك الأسرة قطعة من الأرض واحدة لا تتجزأ بين أفرادها، ولا تورث البنات على الأغلب مخافة انتقال الملك بالزواج إلى الأجانب إلا عند فقدان الورثة الذكور حتى الدرجة السادسة. وكان مثل هذا القانون موجوداً عند الفرنك والملك للأسرة. أما عند العبرانيين فقد كانت الأراضي تقسم بين الأسرات ويجدد التقسيم كل نصف قرن مرة لإزالة ما يطرأ من التفاوت. وهذا ما يسمونه (عام اليوبيل). ولا شك في أن هذا التقسيم الدوري – لتتساوى حصص جميع الأسرات – إنما هو من بقايا الاشتراكية الأولى.

ولم تصر الملكية شخصية إلا بعد أن مرت بهاذين الدورين؛ اشتراكية القبيلة، واشتراكية الأسرة. ومع هذا فلم تكن على شيء من الصفة المطلقة التي هي عليها اليوم من مثل تصرف الرجل فيما يملك أثناء حياته، وبعد مماته بالوصية لمن شاء. ففكرة الملكية الفردية على النحو الذي تبدو به الآن مصونة مقدسة لم تخطر ببال الناس إلا في زمن متأخر.

نعم إن بعض الجماعات الأولى وصل إلى تقديس الملكية الفردية بشيء من السرعة ولكن هذا في حكم الشاذ. فأهالي (كليدونيا الجديدة) وبعض القبائل الأسترالية تعرف الملكية الفردية، غير أن الكثير من هذه القبائل يتعاطى الزراعة. أما الذين يزاولون الصيد فلا يملك الفرد منهم مصاداً كبيراً قط، مع أن ما يصيدونه من الأسماك والقواقع والحيات وما إليها يكثر في بقاع ضيقة لا يعجز الرجل الواحد عن استغلالها والاحتفاظ بها.

ولا يخفى أن مثل هذه الحال النادرة لا تهم الباحث في تطور حق الملك لأنها لم توجد عند الشعوب الأولى وإن وجدت عند بعض المتوحشين الحاليين.

وأما الذي وجد في بدء عهد التاريخ فالدور الثاني من الملكية وكان في أول أمره فكانت الشعوب تتخلص من اشتراكية القبيلة وتدخل في اشتراكية الأسرة. وبلغ هذا الدور أوجه في روما الجمهورية وأسرتها وأرضها التي لا يصح نقلها إلى الغير، فعليها يقام هيكل الآلهة وتبنى قبور الأجداد.

ولا ننكر أن ذكرى الاشتراكية الأولى كانت لا تزال موجودة في العصر القديم كله وفي العصور الوسطى. لأن الرأي القائل في أوائل عهد الإقطاع بأن جميع الأرض تتبع رئيس الأمة وأن ملاك الالتزامات ليسوا سوى مرتفقين ومنتفعين بالثمرة – يدل على مقدار استقلال نظام الملكية عن شكل الحكومة.

أجملنا ذكر القوانين العامة لتطور الملكية. ونكرر أنها من الأنظمة الحديثة العهد بحيث لم تذهب أشكالها القديمة كلها من نظم الشعوب المتحضرة. فاشتراكية القبيلة لا تختلف كثيراً عن اشتراكية القرية، مثل الموجود بجاوة و بقسم كبير من الهند وروسيا. ولا تزال الاشتراكية في الأسرات جارية مجراها عند أهالي سفوح البرينات (البرانس) وقد خلفت أيضاً آثاراً في انكلترا بدليل عادة حق كبرى البنات.

ويرى مما تقدم أن النظام الذي يريده الاشتراكيون الحاليون ليس بنظام مستحدث فالاشتراكية التامة هي أول النظم من نوعها وأحط شكل للملكية عرفه الإنسان، فلابد لبعثته وإعادته إلى الوجود من زوال جميع عناصر حضارتنا الحالية.

٢

ترقي الصناعة

للصناعة من يوم وجدت تأثير عظيم في سير الحضارة وظروف وجود الإنسان، وكلما ارتقت رقت الجماعة وخدمتها.

ولم يلبث نفوذ الصناعة أن ازداد على توالي القرون حتى فاق اليوم تأثير العوامل الأخرى. وليست الحرب – التي أظهر لنا التاريخ إلى عهد حديث أنها رافعة الإمبراطوريات وخافضتها كما تشاء – ببالغة مبلغ الصناعة العظيمة في نتائجها. فالصناعة هي التي أوجدت العبودية وهي التي أزالتها، وهي التي ستهيمن وحدها على أشد منازعات الأجناس البشرية. وسترى الأسواق في المستقبل من النزاع ما هو أنكى على الخاسرين وأتم فوزة للفائزين مما كان يحدث في الوقائع الحربية في مختلف أزمنة التاريخ.

ويكفي أن نبسط مجمل التطور في الصناعة ليستدل القارئ على أهمية الدور الذي كان لها في ترقية الحضارات فنقول: أن مبتدأ أمر القوة الصناعية التي ستخضع العالم يوماً لسلطانها كان من الحقارة بمكان، إذ عاش الإنسان طويلاً وهو أقل عملاً من الحيوان المعروف بكلب الماء ومن النملة والنحلة والخطاف. ثم ابتدأ في خطاه الأولى فتعلم قطع الصوان بضرب أجزائه بعضها ببعض، وصنع أسلحة ومعدات غليظة ساذجة، وكان الصيد مورد حياته. فأول ما برع في صنعه كان معدات الهلاك من مثل الجرز (القرص) والرمح. ثم اصطنع القوس والمقلاع، وهذان الأخيران من

الآلات المنجنيقية الأولى، ويستعملان في استراليا وبولينيزيا عند المتوحشين الذين لا يعرفون معالجة المعادن إلى الآن.

اما الاسلحة الدفاعية كالترس المتخذ من قشر جذوع الشجر والدرع الأدم المحشو بالقطن فهي أيضاً من أسلحة الأوائل. وعليه يصح القول بأن الإهلاك لما كان من ألزم اللوازم للإنسان فآلات الموت هي أول ما صنع.

ولم يكف من ثم عن إعمال ذكائه حتى بلغ ما بلغه في المستكشفات الأخرى مستخدماً موارد العلم، غير أن مستوى الحضارة عند أي شعب إنما قيس بدرجة الإتقان التي وصل إليها سلاحه.

وأهم المستكشفات – بعد صنع السلاح الغليظ للهجوم والدفاع – اكتشاف طريقة الحصول على النار. وبلغ من نفع النار أن عبدها القدماء وألهوا قوتها، مع أنهم استخدموا هذه القوة. وعبادة النار عامة عند معظم الشعوب الأولى وعند الآريين خاصة فقد كانت عندهم عنصر الحياة ينبث في الوجود ظاهراً وخفية ويحيي كل شيء.

ولا يخفى أن اكتشاف النار إنما هو الأصل في وجود الصناعات الهامة فقد يسرت النار إنضاج الأطعمة وأوجدت صناعة الفخار ثم صناعة المعادن بعد ذلك بكثير وفيها سبق البرونز الحديد وبها تمكن الإنسان من افتتاح العالم.

ولم تأخذ الحضارات في الرقى الحقيقي إلا بعد استخدام المعادن. لأن قوة المعدن سهلت صعوبة معالجة مواد الصناعة، فالشجرة التي لم تكن تقطع بالفأس الحجرية إلا في ايام تقطعها الفأس المعدنية في ساعات.

والسفينة التي كانت تنقر بأحجار الصوان في شهور تنقرها الآلات المعدنية في أيام. فلا يدهش الإنسان إذن أن بعض الشعوب الأفريقية يحترم الحداد كما يحترم القسيس، ويعتبر طبقة الحدادين من طبقات الأشراف.

وأصل ترقي الصناعة الجدية إنما كان تقسيم العمل. وقد تحتم التقسيم من يوم أن انضمت الأسرات البشرية الاولى بعضها إلى بعض وكونت القبائل. أما في البدء فكان الرجل يصنع لنفسه ولأسرته السلاح الساذج والملابس والكوخ والسفينة. فلما اجتمعت الأسرات شرع الرجال يتبادلون مصنوعاتهم فتولد من هذا تقسيم العمل. وأدى هذا التقسيم بطبعه إلى إتقان الصناعات بسرعة. لأن صناع الأشياء المتشابهة كانوا يتبارون في تحسينها وزيادة المصنوع منها. فلما أخذ عنهم اولادهم الصناعة رسختها في هؤلاء العادة والوراثة.

وازداد التخصيص في الصناعات شيئاً فشيئاً، فبعد أن كان العامل يختص بعمل شيء بتمامه وصلت به الحال إلى الاختصاص بصنع جزء منه. ولكن التخصيص – على النحو الموجود الآن في الحضارات الحالية – لم يكن إلا محدوداً في الحضارات السابقة، على الصورة التي لا يزال عليها اليوم في الشرق.

والصانع الشرقي أرقى من الأوربي فنية مع أنه لا يشتغل إلا بآلات قليلة. ولذا فإن تقسيم العمل لم يمنعه صنع الشيء تاماً بيده، فيخرج المصنوع وله طابع شخصي لا يمكن أن يكون له بالصناعة الحالية. وعلى هذا نرى أن الصانع الشرقي لم يكن قط مجرد عامل آلي مضى عمره في

عمل واحد كالطرق مثلاً فيخمد ذكاؤه بسرعة من جراء العمل الآلي الوحيد الوتيرة.

ولم تعرف الحضارات الأولى ولا التي أعقبتها في الشرق إلى يومنا هذا شيئاً من الآلات اللهم إلا الأولية منها. فكل عمل من الأعمال كان يتم بواسطة الإنسان. وكان العمال عادة من جماعة العبيد، ولذا كانت العبودية نتيجة أولى لرقي الصناعات ولولاها لما كان إتقان هام في مصنوع. وكيف يتم هذا الإتقان في عصر كان على الإنسان فيه أن يعمل كل شيء بنفسه فيكون صانعاً وزارعاً ومحارباً؟

وفي الوقت الذي كان فيه العمل اليدوي الواسطة الوحيدة عند الإنسان لصنع أقل الاشياء كان لابد من عدة أيد تعمل في إيجاد الضروريات والكماليات، وهل هناك أصلح لذلك من أيدي العبيد الذين تأتي بهم الحروب؟ وعلى هذا كان الفاتح إذا افتتح مدينة أو إقليماً أخذ أهله عبيداً إلى مصانعه. وقد عمد البيض من عهد غير بعيد إلى هذه الطريقة فجروا عليها مع سكان شواطئ أفريقية السوداء.

ويوجد نظام العبودية في أساس جميع الجماعات القديمة، وهذا يدل على مقدار الحاجة المحتمة إليه. فلا مكان إذن لما أكثر فيه المحامون والمؤرخون من الأقوال المضادة للعبودية على غير جدوى، وقد كان الأولى لهم الاجتهاد في تعرف أصول هذا النظام ونتائجه.

وقليل من التفكير يدلنا على أن العبودية وحدها هي التي يسرت الرقي الصناعي الذي نرثه اليوم، وهي التي كان من أثرها تلطيف بلايا الحروب

وويلاتها بمنع الفظائع التي كانت ترتكب في إبادة الأسرى عوضاً عن تشغيلهم.

ولما كانت حقوق السيد على عبده كحقوق الفارس على جواده أكرم السادة البارعين من العبيد كما يكرم الفوارس كرائم الجياد. ودفعتهم المصلحة إلى تيسير رفاهتهم، فكانت العناية بهم أكثر من العناية اليوم برئيس مصنع. وكذلك حق القول بأن ما تأتي به الصناعة القوية من ظروف الأحوال لا يمكن أن تغير فيه أقوال الفصحاء من الخطباء. ولربما كانت الصناعة الحاضرة تعد للإنسان أزماناً أشد قسوة من زمن العبودية القديمة، فاكتشاف الفحم الحجري والبخار والكهرباء نزل بالعامل إلى مهمة آلية وفي مثل هذه المهمة يتساوى الرجال كافة في القيمة. ولكن الأرض تحوي مئات الملايين من الهندوس والصينيين وغيرهم نعني من الذين لا يحتاجون إلى مثل ما يحتاج إليه العملة الغربيون. وقد سهلت لهذه الملايين المواصلات ويسرت لهم بسرعتها ونظامها تعود العمل في مثل مصانعنا. فمن ذا الذي لا ينتظر لهذه الأقوام الغلبة على عمالنا، وما الذي يكون يوم تتمكن هذه الأجناس – بفضل جدها وقناعتها وكثرة الفحم الحجري عندها وانتفاعها باستخدام آلاتنا – من إغراق الأسواق عندنا بسلع تقل أثمانها عما يصنع في أوربا بعشرين ضعفاً مثلاً.

وهناك شكل من التطور الصناعي أكثر رفعة من العبودية، نعني به الخدمة، وسنجدها عند بعض الجماعات القديمة ونرى فيها أحياناً أن يعقبها دور أرقى يقابل ما كان عند طوائفنا الصناعية في القرون الوسطى. ويمكن عد نظام هذه الطوائف مثالاً منها. ومن مقتضاه أن يطلب الإتقان في العمل من كل عامل فلا يرقي العامل المتعلم إلى درجة زميل ثم الى درجة

معلم (اسطى) إلا بعد أن يسوق الدليل على كفاءته ويبرز رائعته وهي أقصى ما بلغ إليه حد إتقانه بعد عمل كثير من السنين.

وكانت كل طائفة شديدة في نظامها تغار على امتيازاتها وشخصيتها وتحتم أموراً كثيرة على أعضائها فلا يجيئون إلا بأعمال متقنة آية في الجمال، وكانت الأسواق قليلة ووسائل النقل بطيئة وتصريف المصنوع مضموناً لسهولة رد عادية المباراة الأجنبية. وبلغ من أمر هذه الطوائف أن قوي سلطانها كما كانت الحال عند طوائف الفينيقيين، فسلحت السفن وأنشأت المدن والمستعمرات وصارت عظيمة الاقتدار، والمثل على ذلك صناع الجوخ في هولندا فقد قاتلوا (شارلكان) وأحرزوا النصر. وعلى هذا يصح القول بأن الصناعة التي جعلت من الحر عبداً ما لبثت أن صيرت العبد سيداً في كثير من البلدان، وقابلت سلطة السيف الجائرة المستبدة بما هو أقوى منها، نعني اقتدار العمل.

ولا توجد أشكال التطور الصناعي التي ذكرناها إلا في الصناعة الصغيرة وهي كل ما عرف الأقدمون، أما الصناعة الكبرى فقد أوجدت شكلاً جديداً من التطور بما سنته من تضييق دائرة التخصيص في العمل وإحلال الآلة محل العامل. ولكننا لا نبتعد هنا عما كان عند الجماعات القديمة. ولو عمدنا إلى بسط تاريخ الصناعة لقلنا بسهولة أنها من أقوى العوامل التي فعلت في تطور الجماعات الحاضرة. وليست الانقلابات والحروب في الغالب إلا أدواراً من أدوار تغيرها وتحولها كما أن الزلازل التي تدهش وترهب ليست سوى صورة مصغرة من بطيء عمل التطور الذي يغير كوكبنا شيئاً فشيئاً ويحوله.

وقليل من المؤرخين والساسة من فهموا المقام الأول للصناعة في التاريخ حتى أن مشرعي الانقلاب الفرنسي الأكبر لم يسلموا من الوقوع في خطأ يسخر منه المفكر – لما أرادوا إتحاف الناس بأنظمة حرة – فالتمسوا بديلاً من عتيق نظام الحكومة والطبقات فيما كان عند الأقدمين، جاءت جمهوريتهم قابلة لكل ما يدخل عليها. فلم تشبه حتى تلك الجمهوريات الأرستوقراطية الأولى التي لم يتمتع بلقب وطني فيها إلا عدد محصور من ذوي الامتيازات، بينا كان العبيد – وهم العديد الأكبر – لا حساب لهم في الرجال مع أنهم قوام الجماعات بما كانوا يقومون به من مختلف الأعمال.

ولا يعد العمل العظيم الذي جعل من الدنيا القديمة دنيانا الحاضرة – بفضل الصناعة – إلا أمراً يسيراً بجانب العجائب التي تأتي بها القوة الصناعية في بضع سنوات، بل بجانب ما ينتظر أن تجيء به أيضاً مستعينة باكتشافات العلم.

إن البخار قوة فعلها أشد من (المقصلة) التي كانت في عهد الانقلاب الفرنسي. وما يجيء من التحول والتغيير الاجتماعي بتطور الصناعة لا يمكن أن تقارن به أشد الحروب اجتياحاً أو أنكر الانقلابات دموية إلا إذا قورن العملاق العظيم بالطفل الضعيف.

وأكرر القول بأني لا أبحث هنا عن نتائج سرعة تقدم الصناعة ففي تقريب ما هي عليه الآن مما كانت عليه في أول أمرها كفاية تلفت القارئ إلى أهمية هذا المحرك الاجتماعي القدير الذي أوجد الحضارات وفعل بها تغييراً وتحويلاً ولا يزال يفعل.

٣

نشوء الحكومات وترقيها

لا ينبغي أن تعتبر الأنظمة السياسية في تاريخ تطور الجماعات البشرية كأسباب بل كنتائج، لأنها ترجمان حال مدنية الشعب تتطور معه. والنظام السياسي لأمة لا يدل إلا على ظروف حياتها، وعلى الأدوار الحكومية التي تقلبت عليها، وستبدو هذه الحقيقة يوماً ما كأنها من أولى الحقائق الواضحة، وإن لم يتناولها الآن إلا اللمح. لأننا لم نتخلص بعد من الخطأ القديم المقول به في كافة الانقلابات ومعناه ان الشعب يستطيع اختيار النظم التي يراها في نظره خيراً من سواها، ويتصور أن مصيره يتغير بتغير الأنظمة التي يتخذها لنفسه.

لا يزال بعضهم يظن أن القوانين الأساسية للحكومات تسن في يوم ثم تفرض على الناس ليذعنوا لها بالإقناع أو بالقوة، وأن حضارة شعب من الشعوب المنحطة لا تكون إلا بتسييره على مجموع القوانين التي نجحت أكثر من سواها عند الشعوب الراقية، وهذا باطل.

أنشأ (ليكورغ) و(سولون) قوانين تعد مثالاً باقياً في بطون الكتب القديمة، ولكن هذه القوانين لم تبق إلا لأن واضعيها اكتفيا بتقنين العادات التي أثبتها التعود والدين في النفس. فجاءت القوانين المذكورة على وفق حاج الشعب الذي ستسري عليه. قال (سولون) لم أجيء للأثينيين بأحسن ما يسمو إليه التصور من القوانين بل بأحسن ما يوافقهم.

وسيدلنا درس الحضارات التي تعاقبت في التاريخ على مبلغ صحة

القول بأن الأنظمة السياسية هي مظهر حاج الشعب. فإذا لاحظنا وجود نظم متشابهة عند أمم وصلت إلى وجوه متشابهة من التطور استنتجنا حتماً أن هذه الأمم إنما قبلت تلك القوانين كضرورة لا محيص عنها ولم تخترها اختياراً. إذ لا يوجد مثل واحد من التاريخ على شعب غير نظمه فجأة. فهي الأسماء التي تتغير أحياناً بعد الانقلابات الدموية أو الفتوحات المبينة. ولم يكتب الدوام قط لتغيير فرضه أعتى الفاتحين إلا كان هذا التغيير طفيفاً وغاية في الضعف. وإذا كان الأمر كما ذكرنا في الأزمنة القديمة فهو كذلك في العصر الحاضر.

خذ جزيرة (كورسيكا) مثلاً تجد أنها منوطة برجل فرنسا كما تناط القنبلة. لها حاكم وقضاة وقانون وشرطة ومع هذا فلا يحكمها إلا قطاع الطرق فيها ولم تتغير أحوال الجماعات هناك عما كانت عليه في القرون الوسطى.

والمثل الآخر (أرلندا) وهي تكاد تكون كسيرة تحت اليد الانجليزية الحديدية، ولكنها لم تتغير. وهناك الشعوب المنحطة التي نحاول أن نحكمها بقوانيننا على غير جدوى كعرب الجزائر. وهي تعد خير برهان على استحالة تغيير النظم، لأنه بمثابة تغيير عقلية الشعب.

ومن يتدبر تاريخ الأمم يجد أنها اجتازت أدواراً عامة من الدستور السياسي كما اجتازت أدواراً دينية أو صناعية. فلم تنشئ نظمها قط مما تجمع من هاهنا وهنا.

والقواعد التي تليق بشعب لا تصلح لغيره فقيمتها إذن تبعية. ولقد كان الجبروت صالحاً في أوقات، والحرية في أخرى. والنظام السياسي إنما

هو وليد ضرورات وجوده وبيئته من جهة، وعواطفه وأفكاره الموروثة – نعني ماضيه – من جهة أخرى.

ويجيء نظام القانون كله على وفق عقلية الشعب فلا يختاره كما لا اختيار له في العواطف والأفكار التي عنده منذ وجوده. ولا تتغير نظم شعب قط إلا بتغيير ظروف وجوده فمن العبث أن يسام الإذعان لقوانين غير التي يخضعه لها ماضية، لأنه لا يطيقها. ومن المحال أن يؤتي له معها وهي نتائج بجميع الأسباب التي كانت الأصل فيها. وسنبين للقارئ بعد ما ذكرناه كيف نشأت الحكومات وترقت في المدنيات الأولى، فنقول:

أن تأثير البيئة من العوامل المعدودة في الدرجة الأولى. وسندل على أهميتها في فصل خاص فيرى القارئ أن بعض البيئات تتضمن أنظمة خاصة. مثال ذلك أن الشعوب التي تعيش في الصحاري لابد ان تكون متبدية، لا تقيم حتى تظعن. فالحكومة المركزية عندها غاية في الضعف حتماً، والسلطة الأبوية قوية والتقاليد مرعية، وحب الإغارة والغزو متسلط، حتى ليمكن القول بأنها سكنت جميع البقاع المختلفة. وهذا على عكس الشعوب التي تعيش من الصيد بالأراضي الغابية. إذ الحكومة عند هذه لابد أن تكون استبدادية قوية والسلطة الأبوية ضعيفة. ولا علم لهذه الشعوب بالتقاليد ولا همة فيها لغزو العالم.

غير أن هذا قد يعد من الأحوال الخاصة فلا ندرسها الآن وإنما نلتفت إلى الدلالة على الكيفية التي ترقت بها النظم الأساسية الحكومية التي يجدها الإنسان عند جميع الشعوب على وجه التقريب.

وأقدم أساس للحكومة إنما نشأ عن حاجة الأسرات البشرية الأولى إلى المشاركة في دفع أعدائها لأن الوجود كان مخوفاً والدمار نصب عين الإنسانية الأولى فأول ما خطر ببال المتوحشين الأولين إنما هو الاجتماع جماعات وإيجاد قوة أولى من مجموع وحداتهم الضعيفة لمواجهة الحيوانات المفترسة ورد عادية – أمثالهم من المعتدين. وقد أبنا في فصل سابق ماهية هذه الجماعات التي كانت أشبه بقطعان الماشية.

وماذا يغني الاجتماع إذا لم تجر الأعمال بمحرك مشترك، وكيف يتم ذلك إلا إذا وجد رئيس يكون أعقل القوم وأقواهم وأكثرهم مهارة؟

أن القردة تعيش بهذه الكيفية فتجتمع جماعات صغيرة يرأس كل واحدة – منها ذكر قوي. وهذه الصورة الأولى من الحكومة توجد عند البشر مثل شعوب (الباتاجون والنيوزيلانديين والاستراليين). والجماعة عند هؤلاء الأخيرين لا يكاد يزيد عددها عن ٢٠ أو ثلاثين من ذكران وإناث وأطفال. يرأسهم واحد.

ومما يدل على نشوء هذه الجماعات ورؤسائها – تبعاً لما قضت به ضرورة – دفع العدو أو مهاجمة الخصوم وانتزاع ما في يدهم من نزر القوت – أن بعض الشعوب الأولى لا وجود عندها للجماعات برئاسة الأفراد عليها إلا وقت الحروب فقط فإذا انتهت الحرب انتهت الرئاسة. والمثل على ذلك أهل (تسمانيا) فرؤساؤهم وقتيون وكل جماعة تختار الرئيس عليها قبل شن الغارة فإذا ما انتصرت أو خذلت تساوى الرئيس والمرؤوس.

أما الأمم التي لا تباشر الحرب فلا تفقه مبدأ سلطة الفرد ومن ذلك (الاسكيمو) فإنهم يعيشون جماعات صغيرة مسالمين لا يقاتلون ولذا لم يصلوا إلى فكرة الملك. وكم كان مقدار دهشتهم لما رأوا النظام في السفن الأوربية وشاهدوا انصياع البحارة الشداد لأوامر القائد الواحد.

وليست الحرب كما سترى – السبب الوحيد في نشوء الحكومات الأولى. ولكنها إذا كانت السبب في نشوء أية حكومة فالرئاسة في هذه الحكومة لفرد.

ولقد أدرك الناس من أول عهد خصوماتهم قوة النظام وعرفوا أنها أهم من قوة العدد. فكثير من الجماعات الصغيرة فرقتها مطامعها الوحشية فذهبت في خبر كان لفقدان النظام.

ومعروف أيضاً أن ضرورة الطاعة لإرادة واحدة وفكر واحد لا محيص عنها وقت الخطر، حتى عند أغبى الناس. فالمحن القاسية إذن هي التي علمت الأوائل الخضوع بل والإفراط فيه. والجبروت الذي يتحكم به ملوك أفريقية إلى اليوم دليل على ذلك.

وإذا كان الخوف ولد فكرة الآلهة فهو الذي أوجد أيضاً فكرة الملوك. ولما امتزجت الفكرتان، ومهر القادة الأوائل في طبع قوانينهم بطابع الألوهية وأمرها، تخطت سلطتهم كل حد وتحكم هوى الواحد في آلاف من أمثاله فعبدوه.

وعلى ما تقدم يصح القول بأن الحرب أم للحكومات الملكية المطلقة، لأنها هي التي تؤدي إلى وضع السلطة بين يدي فرد. ومما يذكر أن (الخطر

العام) في روما هو الذي أوجد (الدكتاتورية) ولما زال هذا الخطر رجع (سنسناتوس) إلى محراثه.

وشوهد أيضاً في البلدان التي تعشقت الحرية أن الحرب هي التي أطلعت الجبابرة المستبدين، وكان بدء أمرهم في الغالب أن وقفوا حماة الوطن مدافعين عنه. ولا غرابة، فالعدو القوي المرهوب يوجد مثل (يوليوس قيصر) عند جيرانه.

ويقال إجمالاً أن الأمم التي اضطرت بمركزها الجغرافي إلى البقاء متأهبة للعدوان اتخذت الملكية المطلقة حكومة لها. أما البلدان المتسعة الرقعة المفتحة للغارات المعرضة للثورات الداخلية فتجدها (أوتوقراطية) كما شوهد ولا يزال مشاهداً في الشرق.

وأما البقاع المحدودة المحمية بالجبال فالغالب أن تكون جمهوريات صغيرة حرة كما كانت اليونان في الأزمنة القديمة وكسويسرا الآن.

ولا يعرف الرجل شيئاً من جبروت الحكم إذ ليس لهم من بلاد يدافعون عنها ويرتبطون بها. والمثل على ذلك التركمان الرحل فإنهم لا يستطيعون الإذعان لرئيس.

والصناعة بعد الحرب من أقوى العوامل التي فعلت في شكل الحكومات إن لم نقل أنها ولدت أشكالاً بنفسها، لأن الثروات الأولى التي أنتجتها، وما بني عليها من فقدان المساواة بين الناس، أوجد السلطة بعين السرعة التي أوجدتها بها المعارك الأولى ولا فخر. فإتقان أدوات الإنسان رقي الصناعة عند الجماعات الاشتراكية الأولى فأخرج مهرة الصناع والزراع

أكثر مما تمس إليه الحاجة الشخصية، فبادلوا به وباعوه فاستحدثوا لأنفسهم ثروة. وصار المثرون طبقة اجتهدت في حماية أملاكها من عدوان الفقراء وأهل الطمع، فوضعت القواعد والقوانين لذلك، فكانت هي الحكومات، ولكنها غير الحكومات التي ولدتها الحرب، لأن السلطة عند الأمم الصناعية أقل حصراً منها عند الأمم الحربية.

ولقد جعلت الثروة الاستعمارية في (صور) من تجارها أمراء كما قال (إيسايي) وأطلقت لهم ولأصحاب السفن كثيراً من السلطة في المدينة مع وجود ملوك لها أسوة بسائر بلاد فينيقية. ومما يذكر مثلاً من الحكومات التي ولدتها الصناعة؛ حكومة البندقية التجارية، وجمهورية البلاد الواطئة.

ولابد أن ترى من النظم – في أصول الحكومات التي ولدتها الصناعة – ما يختلف عما يرى في الملكيات الحربية. فالحاكم في الأتوقراطية الحربية ليس له من خصم في الأمة، ولكنه في الحكومات الصناعية متعدد الخصوم بتعدد رجال الأرستوقراطية الصناعية كما كانت الحال في (صور) المذكورة فيما سبق. ولذا لا يجد محيصاً عن الإرتكان على الشعب، قل عليه حيف لأرستوقراطيين أم كثر.

ولاحظنا فيما سبق أن البلاد التي لا تباشر الحرب لا تعرف السلطة الملكية ونلاحظ الآن أن الذين يجهلون الصناعة لا يدرون ما الحكومة المنظمة مثل (الفويجيين) في أمريكا الجنوبية و(البوشمان والهوتنتو) في أفريقية، ولو عد الأخيرون من الرعاة – وعندهم نوع من أرستوقراطية ملاك الماشية – فلهم من النفوذ بقدر ما لهم من القطعان، ولكن الحرب إذا نشبت أمر

(الهوتنتو) عليهم أميراً وقتياً تنتهي إمارته بانتهاء الحرب.

يرى من جميع ما تقدم أن الحرب والصناعة كانا إذن المصدرين الأساسيين. الكل حكومة، فتطورها على مر العصور محدد لتطور الأنظمة السياسية – إلا أن هناك مصدراً ثالثاً نعني به المعتقدات الدينية التي – وإن جاء تأثيرها متأخراً عن تأثير المصدرين الأولين – لا شبهة في أنها لا تقل عنهما عظمة. ولا عجب، فما دامت الأمم القديمة قد اعترفت جميعها بخضوع أمور الناس لسيطرة القوات الرهيبة المستعلية على الطبيعة فمن الطبيعي أن يجري الناس على أوامر الكهان العالمين بإرادة تلك القوات المفسرين لمعجزاتها الواقفين على ما يخفف ثورانها من الصلوات والدعوات. ومن الطبيعي أيضاً أن يجتهد الحاكم الدنيوي في طبع أوامره بالطابع الإلهي ويحالف رجال الدين.

وكثيراً ما اختلطت السلطة المدنية بالدينية وبقيتا على اتحاد وثيق. فجميع الملوك الأولين حاولوا تأسيس سلطانهم على أساس إلهي، فكانت فراعنة مصر تعبد بعد موتها، وكان المقول عن (رومولوس وريموس) أنهما ابنا الإله (مارس)، وكان (توما) يستوحي (إيجريا) إحدى ربات المياه والغابات والجبال ويستمد منها النصح، وكانت ملوك فرنسا تمسح بالزيت المقدس و تطلب لأسراتها الحق الإلهي، وسمي الصينيون إمبراطورهم ابن السماء، واعتبر اليابانيون الميكادو ممثل الآلهة، وسلم أهل الدولة على ملكهم بتحية الآلهة فلا يخاطبونه إلا وهم في الحضيض، ويتلقون بصاقه في آنية من ذهب. وهذه الخزعبلات وإن بقي منها إلى أيامنا – حتى عند بعض الأمم المتحضرة – ينبغي لنا أن ندرك منها شدة ما تكون عليه عند

الأجناس المتبربرة فنحكم – تبعاً لما نراه من الاستبداد المطلق عند ملوك الزنوج في أفريقية – بأن لهؤلاء الملوك بعض صفات التأليه عند رعاياه. وبأن الوراثة والتقاليد القديمة قوت العبودية في الرعايا بحيث تؤدي بلا بحث أو مناقشة فيها، فيعذب الملوك رعاياه ولو لمجرد التلهي، أو بقصد الدلالة على أن محض رغبتهم قانون لا يعارض فيه أحد.

ولقد يرى الإنسان إرادة الآلهة في أساس الحكومات عند جميع الأمم القديمة، وهي التي جعلت تلك القوانين يابسة ثابتة تعارض كل تقدم، إلا أنها لم تلبث أن أذعنت مع ذلك للتغيير البطيء الحادث في ظروف الحياة يوماً فيوماً. وسنرى عند الشعوب التي سنصف حضارتها في هذا الكتاب تفوق الحكومة الدينية وشدة سلطانها فكان المصريون يتلقون قوانينهم من رجال الدين وكان لهؤلاء الحكم على الملوك بعد وفاتهم. ومن الأمثلة أيضاً أن العبرانيين كانوا يعتقدون بأن إلههم يحكمهم رأساً وأن موسى ويوشع والقضاة ثم الملوك بعد ذلك لم يكونوا إلا مفسرين للأحكام و ممثلين للإله. ولا ننسي أيضاً ما كان للكهان عند الآريين القدماء من النفوذ العظيم بدليل ما ذكرته كتب الدين (فيداس) من الهدايا الواجب على ملوك الأرض تقديمها إليهم كلما أراد هؤلاء الملوك نجاح أي مشروع شرعوا فيه.

ولم تتغير الحال عما ذكرنا بعد ذلك أيام ازدهار الحضارة اليونانية والرومانية فكان القانون المدني والقانون الديني ممتزجين، نيرهما واحد يرزح تحته كل وطني وكان الفرد ضحية الجماعة وليس له أدنى شيء من الحرية الخاصة وكان آلهة المدينة على قدم التهديد والوعيد فلابد من طاعتهم طاعة عمياء، ولا مفر من استشارتهم قبل اعتزام أي أمر، وإنكار ذلك

خيانة للأمة تثيرها كلها على الناكر الشاك ولو كان سقراط بعينه.

بقي علينا – بعد أن دللنا على أن النظم السياسية لأية أمة إنما نشأت عن الحرب والصناعة ثم أثبتتها القوانين الدينية – أن ندل بلا تطويل على تطور هذه الأنظمة في الدنيا ونصف التغييرات التي تناولتها. وسنكتفي هنا بالدلالة على الأمور العامة الكبرى فنقول: إن هذه التغييرات تطابق تغييرات ظروف المعيشة البشرية وتقابلها، خصوصاً عقب ترقي الصناعة.

غير أن هذه التغييرات الضرورية لم تحدث قط عفواً وبسهولة. بل كان حدوثها بصعوبة وجهاد هو روح حياة الجماعات، ولابد منه بين دوافع التقدم وجواذب الاحتفاظ بالقديم.

إن الشعوب لا تعيش إلا بشرط احترام تقاليدها، ولا تتقدم إلا بشرط معرفة التخلص – في الوقت الموافق – من نير هذه التقاليد إذا صارت عديمة الجدوى أو ضارة. وما أصعب حل هذه المشكلة التي يظهر للقارئ تناقض وجهيها فإنها من أصعب المشاكل التي تتطلب الحل. والتاريخ مملوء بأنقاض الأمم التي زالت لأنها لم تعرف كيفية الوصول إلى هذا الحل. وسنرى – عند درس مختلف عوامل الحضارة – أن لدرجة أهلية الشعب للتغير أكبر أثر في حياته. فإذا ضعفت هذه الدرجة منعته كل تقدم، وحكمت عليه بالزوال أمام الشعوب التي تعرف أن تتقدم. وإذا زادت عن الحد أفقدته كل تالف وتماسك وأوردته الهلاك.

ويظهر للإنسان أن دور الحكومات – في جميع المدنيات الأولى – كان أعظم مما صار إليه بعد ذلك في الجماعات التي زاد ارتقاؤها، والحقيقة أنه

أقل كثيراً. فتدخل الحكومة في شئون الوطنيين عند الأمر الأولى كان معدومة على وجه التقريب، لأنها لم تفكر في السيطرة على صغائر تفصيلات حياة الأفراد كما هو حادث في الجماعات الحاضرة فكان نفوذها قاصراً في العالم على القيادة العسكرية عند الشعوب الحربية، وعلى التحكيم السلمي عند الشعوب الزارعة والراعية. ولم تكن تشتغل إلا قليلاً بالمصالح الخاصة المتروكة للأسر، أولاً تشتغل بها أصلاً. أما الفكرة القائلة بأن الجماعة لها حق التدخل لمعاقبة مرتكبي الجرائم الواقعة على الأفراد فإنما جاءت بعد ذلك. وأول

ما يتبادر إلى الذهن طبعاً أن الشخص المجني عليه أو الأسرة الواقع عليها العدوان هما أحق وحدهما بالانتقام. ومن هنا جاء القصاص، وهو أساس القانون الإنجيلي. وينفذه المجني عليه أو أقاربه، ويوجد في كل قانون أولي. ولا تعاقب الجماعة إلا الجرائم التي تهم القبيلة أو آلهتها. ووجد هذا الضرب من الحكومة الأولى عند جميع الشعوب المتوحشة التي لم ترتق فيها الصناعة.

ولما تخلص الأوائل من الوحشية إلى البربرية تغير نظامهم الاجتماعي فعرفوا القبيلة ثم العبودية ثم نظام الإقطاع، فكانت القبيلة منظمة مؤسسة على القرابة، قد اختلطت فيها سلطة الرئيس بسلطة الأبوة. ولما انضمت عدة قبائل بعضها إلى بعض بتأثير الضرورات الجغرافية والمشاركة الحربية – ظهرت الأمة. وما تأسست حتى اتخذت العبيد، ونظمت أمورها على طريقة النظام الإقطاعي.

ولا ريب في أن الحروب تغير شأنها أيضاً. فلم تعد عدواناً من قبيلة على أخرى، تذهب به وقعة تنتهي بإبادة الأسرى قرباناً للآلهة أو طعاماً

للمحاربين، بل أصبحت أمراً جللاً، وغارة يشنها جنس برمته على صقع غني ليستولى عليه وينزل به. ويبيت المنتصرون سادة أرض واسعة وجماهير غفيرة مغلوبة. فلا يكون لهؤلاء السادة من فكر أو شغل إلا الاحتفاظ بهذه الأرض والاستئثار بحاصلها. فيستخدمون فيها المغلوبين للزرع، وكذلك وجد الفتح العسكري. ونشأ في النظام الاجتماعي طبقات الدرجات العسكرية. فمن قائد عام إلى ضابط إلى ضابط صف إلى جندي. وقابلها من ثم ألفاظ الملك فالسيد ثم التابع ثم تابع التابع. وانتفت من هذا العهد إبادة المغلوبين لنفعهم في إحياء الصناعة ولزومهم في العمل لسادتهم بالحقول والمصانع كيما ينفسح الوقت للغالبين، فيتوافرون على الكفاح أو على ترقية ذكائهم، وهندمة فنونهم. فأصبح المغلوبون أعبداً كما حدث في (لاكونيا) أو خدماً كما كان فلاحونا في القرون الوسطى.

وإذا ظهرت لنا العبودية والنظام الإقطاعي بمظهر البربرية فليس من ينكر أن فيهما تقدماً عظيماً على الوحشية القديمة. أما من حيث طراز الحكومة فيعد طرازها الحكومي أولياً لأن المحكومين كانوا إلى ذلك العهد أحراراً يشتركون في تولى السلطة. نعني أن كل ما أن كانت له السيادة المطلقة على أراضيه فيفض مشاكله التي تحدث بينه وبين جيرانه – والسيف في يده – بلا تدخل من جانب الحكومة. وبقيت هذه الطريقة إلى أيامنا هذه على وجه التقريب. فلا تزول إلا يوم أن تقوم الصناعة الكبرى باستحداث ظروف معاشية جديدة تثل عرش العادات القديمة شيئاً فشيئاً إلى أن يمحي منه الأثر.

وإنا لنجد في المدنيات الكبرى بالشرق القديم كل ما أوجزناه هنا. فنرى تبعاً للأمكنة والعصور – حكومة المساواة الأولية للرعاة، لا سلطة فيها لغير رب الأسرة، كما كان عند الإسرائيليين في زمن إبراهيم الخليل، والملكية المطلقة العسكرية عند الأشوريين، وحكومة التجار عند الفينيقيين، والنظام الأرستوقراطي والإقطاعي عند المصريين. ولكن هذه الأشكال – وإن اختلفت – تتشابه عند الشعوب التي وصلت إلى درجة واحدة من الرقي، لأنها مظاهر الروح والحاج عند كل جنس في طفولته وشبابه وكهولته.

الكتاب الثاني

كيف ترقى الأمم إلى الحضارة؟

الفصل الأول

تأثير البيئات والأجناس



تمثل الشعوب المختلفة – الموجودة الآن في المسكونة – جميع درجات التطور: من الوجود الحيواني البحت والوحشية الأولى، إلى أرقى درجة من الحضارة. ومن هذه الشعوب من يمضي في التقدم باستمرار كالأوربيين – ومن يظهر أنه بلغ الحد الأقصى لرقيه الطبيعي وقدر له أن لن يتقدم خطوة إلى الأمام كالصينيين المحصورين في أشكال اجتماعية خالدة في الظاهر. ويدلنا التاريخ من جهة أخرى على أجناس عاشت رفيعة سامية عدة قرون ثم انحطت رويداً رويداً وأدى بها التطور العكسي إلى الدمار. فنتساءل عن أسباب هذه الظاهرات ونقول لماذا لم تمش الشعوب جنباً لجنب في طريق مفتوح للجميع؟ وأية قوة خفية وقفت بعضها عند الخطى الأولى، ودفعت بالأخرى في سير حثيث، وأسقطت غيرها سقطة لا قيام منها، وأمسكت بسواها في سكون أبدي؟

إن العوامل المحددة لتطور أي شعب من الشعوب كثيرة العدد، ولها كلها أهمية كبيرة؛ فمن الخطأ الالتفات إلى واحد أو اثنين منها فقط كما فعل الكثير من المؤرخين، إذ عزوا إلى عامل أو عاملين تأثير مجموعة من

العوامل وجرت العادة إلى اليوم برد أكبر حوادث التاريخ إلى اسباب بسيطة فسهلت مهمة المؤرخ فكان لا يحار في إيضاح أية ظاهرة من الظاهرات وأمامه سهولة نسبة الأمور إلى تدخل قدرة عليا، أو إلى مؤثر واحد كالبيئة، أو سلطان عظماء الرجال. وهذا خطأ يشبهه خطأ الرياضي الذي يريد أن يخبر عن سير متحرك خاضع لجذب عدة أجسام، فلا يلتفت إلا إلى جذب واحد منها فقط.

وسنعدد هنا أهم عوامل التطور في الشعوب، ونجمل درس تأثيرها، ونجتهد في إبانة قيمة كل منها فنقول: أن أهم هذه العوامل في نظرنا: البيئة، والجنس، والوراثة، والصلاحية للتحول والتغير، ورقي الزراعة والصناعة، وتنازع البقاء، ونفوذ عظماء الرجال، وسلطان الأماني والمعتقدات.

١

تأثير البيئة

ونبتدئ بدراسة "البيئة" فنقول: إن من الصعب المغالاة في تأثيرها في الإنسان، ولكن من السهل المغالاة في تأثير أحد عناصرها، ونعني به المناخ الذي بالغ فيه معظم المؤرخين واشتغلوا به دهراً طويلاً لأنهم لم يعرفوا غيره، فعزوا إليه الأثر كله، فكانت البرودة أو الحرارة الأصل في مميز الجنس، وفي لون جلده، وفي أخلاقه ومواهبه. وكان الترمومتر أو مخبار الحرارة آخر ما يلاذ به للاستشارة كلما أريدت معرفة شعب ما.

ووقع في هذا الخطل بعض ذوي العقول الكبيرة مثل (مونتسكيو) إذ

قال هذا الفيلسوف الفاضل ما نصه: "تجد في الأقاليم الشمالية شعوباً قليلة المعائب كثيرة الإخلاص والصراحة. فإذا اقتربت من الجنوب خيل إليك أنك بمعزل عن القانون الأدبي الأخلاقي، فرأيت الشهوات الشديدة، وكيف تفعل في زيادة الجرائم. فكل فرد يجد في منازعة إخوانه جميع المزايا التي تعزز هذه الشهوات. أما في البلاد المعتدلة فإنك تجد الشعوب غير مستقرة على شأن من شئونها. لا فرق في ذلك بين المساوئ والمحاسن – لأن المناخ هناك ليست له صفة محددة تحديداً تاماً تقر الأهلين على حال".

هذا كلام (مونتسكيو) ولكن العلم الحديث لا يكتفي اليوم بأمثال هذه التعميمات المهمة. فمسألة تأثير البيئة وتكيف الأحياء بها من أدق المسائل في التاريخ الطبيعي بحيث ابتدأنا اليوم فقط في إدراك مداها، فلا نتكلم عنها إلا بإيجاز، ونكتفي بالدلالة على تعقيد ما ظنه (مونتسكيو) وإضرابه سهلاً، فنفصل بعض العناصر التي تدخل تحت عمومية اسم البيئة ونذكر تأثير كل منها، ونبتدئ بذكر المناخ فنقول:

لو حظ تأثير المناخ من زمن (أبقراط). ومن الأمور الحقيقية عموماً أن المناخ البارد الجاف يزيد القوة والصلاحية للعمل ويقوي الإرادة، وأن المناخ الحار الساخن يحدث الكسل والميل إلى الراحة والمسرات الهينة، ويدعو إلى الخوف من أي مجهود. ولا عجب ففي البلاد الحارة توجد الشعوب التي تخضع أكثر من غيرها لجبروت سادتها مثل الهندوس وعدتهم نحو ٢٥٠ مليوناً يصدعون اليوم بأمر ثلة من رجال الجنس القوي الانجليزي السكسوني.

ولكن المناخ جزء من البيئة وبجانبه فيها عناصر أخرى. وليست درجة الحرارة الكل في الكل. وهناك اليبس، والرطوبة، والارتفاع، ومقدار النور، ونوع الهواء، والاتجاه العادي للرياح... الخ، وكلها تدخل في تكوين المناخ، ولكل منها أثر خاص في نفس المرء وجسمه.

إن صفات أهل الجبال لا تشابه صفات سكان السهول أو نزلاء الجزر؛ فالأولون قليلو الميل إلى مخالطة الناس، قد اعتادوا ارتقاء الحزون الضيقة بمفردهم والعيش بعيداً عن الطرق الكبرى التي تسير فيها الجماهير، فكان من طباع الجبليين الصمت والقناعة. وأما سكان السهول فأهل فرح وبشاشة وإيناس. وترى نزلاء الجزر قد اعتادوا رؤية البحر فأغرموا بالتجوال وهاموا بالأسفار البعيدة. ولذلك كانت الشعوب التي تسكن الشواطئ لا تكف عن السياحات وتعاطي التجارة كالفينيقيين والهولنديين، وهذا بسبب اتساع مستعمراتهم. أما السويسريون والاسكتلنديون فمن الشعوب الجبلية ولذا تجد فيهم الشدة والقناعة وقلة الاتصال بغيرهم والغيرة على حريتهم.

ولليبس والرطوبة تأثير كبير ففي البلاد الكثيرة المياه توجد الأجناس الرزينة البطيئة كأهالي البلاد الواطئة في أوربا ففيها الضباب الدائم يدعو النفس إلى التفكير والاحتجاب. وهذا عكس الهواء الجاف القوي فإنه يطلق من الأجسام والعقول، ويعين على تكوين أجناس خفيفة مرنة إيجابية عصبية تياهة كالجنس الإغريقي.

وللمناخ تأثير مباشر في حاصل الأرض، و به يؤثر أيضاً في الإنسان.

وسيمر بالقارئ فيما يلي فعل حاصلات الارض في ظروف العيش والنظم الاجتماعية للشعوب. ونكتفي الآن قولاً بأن هذه الحاصلات إذا زادت كثيراً أو نقصت كذلك أدت إلى أثر سيء. فزيادتها وميسرة الحصول عليها تدعو إلى الكسل والتراخي وتمنع التقدم، وقلتها توقع الإنسان في الجهد فلا يتوافر التوافر الكافي على استخدام ذكائه للرقي.

وأثر النور يعد أيضاً من عناصر المناخ، وإذا كان تأثير الضياء في تركيب الإنسان أقل منه في النباتات فليس هناك ما يمنع مقارنته به، فالنبات المربي في الكهوف يكون ضئيلاً مشوه اللون لا يعيش طويلاً، وجلد الإنسان يسمر من الشمس.

ولقد أرادوا نسبة وجود الأجناس السوداء إلى شدة أثر النور الباهر، وليس لدينا من برهان على ذلك. ولكن الذي نسلم به هو أن تلون الزنوج إذا كان بفعل الشمس فمرجعه إلى سطوع الأشعة لا إلى حرارتها، لأنك إذا صعدت من خط الاستواء إلى ناحية القطب رأيت ألوان الأجناس تصفو مع صفاء لون شعرها وعيونها، ويرى هذا الصفاء حتى حدود الأقاليم القطبية. وهناك ترى الشقرة الموجودة في أهل (اسكنديناڤيا) قد انقلبت إلى سواد في شعر الاسكيمو واللابون وفي عيونهم، فتقول إذا كانت تلك الأقاليم خالية من الحرارة فإن انعكاس أشعة الشمس على الثلوج يحدث فيها نوراً باهراً.

وللنور أثر في الصفات المعنوية للإنسان أكثر منه في جسمه، وقد كان (غوته) يقول وهو يجود بروحه "أريد نوراً، أريد نوراً" ولزوم النور كلزوم

الأوكسيجين في الهواء. وفي البلاد المنيرة الكثيرة الضوء يتفتق الذهن ويستيقظ التصور ويخف العمل. وفي البلاد المظلمة يخيم الأسى على القلوب ولا يجيء الشعراء فيها إلا بأحلام مضطربة متكلفة. وما أكبر الفرق بين ظلمة الأساطير السكسونية والنورماندية وأساطير اليونان البهيجة، أو بين أغنية القبائل الاسكوتلندية – ومبعثها السويداء – و بين السرور من فعال (دون كيخوتي[٢]) و(رولان الحردان). ولا جدال في أن مواطن الفلسفة الزاهية إنما هو بلاد الشمس، وأن المسرات تحت سماء البلاد الشمالية الدكناء لا تخلو مما يشوبها.

وتبعث المناظر الطبيعية الهائلة في تصور الناس غير ما تبعثه المناظر اللطيفة المعتدلة، فحاصل الأدب والعمارة في الهند لا ترى فيه إلا الجسم الهائل المتخالط حتى في الفخم منه. وذلك لأنه تولد أمام طبيعة عظيمة تحت أعلى الجبال في العالم، وعلى شواطئ أقيانوس مترامي الأطراف، وبمشارف غابات ترتد عنها الأبصار حسرى. وهذا على عكس الفنون الإغريقية التي تجلى فيها الانسجام وظهرت البساطة لأنها تولدت في قطر منير الأجواء ضاحك الأرجاء ليس فيه ما يخفي وما يرهب.

بعد أن تكلمنا على أثر المناخ – من حيث ما ذكرنا – نعود فنتكلم على أثر الأرض وحاصلاتها أيضاً فنقول: أن أثرها في الانسان من الآثار الرئيسية إلا في أول أمر الحضارة حسب بل في زمن مديد من عصر

---

[٢] هو فارس نبيل إسباني تسلطت الأوهام على عقله فصار يظن طواحين الهواء جبابرة ويهاجمها, ويسمى بالفرنسية (دون كيشوت) وبالإنكليزية (كون كيكسوت). ونقلت نوادره إلى العربية بقلم السيد عبد القادر رشيد وطبعت بالمطبعة السلفية بمصر.

التاريخ. ولكن إذا تجاوز الإنسان الماضي إلى العصور الحديثة – التي يمكن القول بأن الإنسانية ترمي فيها إلى بلوغ حضارة واحدة – رأى أن تأثير الأرض وحاصلاتها قد نقص بعض النقص لميسرة النقل وسهولة أسبابه.

وقد كان هذا التأثير رئيسياً كما قلنا في أول الحضارة وقبلها على وجه أخص فكانت الأراضي هي المحددة لأسباب العيش وللنظم السياسية والاجتماعية عند الشعوب. ومن السهل الدلالة على ذلك بالشعوب التي كانت تقطن الغابات والمراعي والشواطئ البحرية ومختلف الأراضي المزروعة. وإذا تعذر علينا هنا أن نذكر جميع الأحوال الخاصة فإنا نكتفي بذكر مثلين مميزين: الأراضي المغطاة بالغابات، وأراضي الحشائش. فالأولى أعانت الإنسان على العيش بما تحويه من الصيد، والثانية إنتاج القطعان التي تربي في مراعيها يوم أن كانت الزراعة غير لازمة أو مجهولة أو في بدء شأنها. فتولدت من هذه الظروف المعاشية أنظمة اجتماعية غاية في الأهمية عند جميع الشعوب التي سكنت أماكن متشابهة مهما تباينت أجناس هذه الشعوب.

خذ البلاد الغابية في أمريكا الجنوبية مثلاً تجد أنها أعانت الإنسان بصيدها ولكن على معيشة الكفاف. وبسبب ضئولة الموارد قل عدد الأسر وتفرقت وتباعدت منازلها، وتذرع الفرد منها في شبابه بقوته ومهارته لاكتساب ما يكفي نفسه من الطعام، فلما أسن قل اعتباره وتركه ذووه أو قتلوه تخلصاً من إطعام من لا ينفع. ولما كان رب الأسرة لا يؤدي لها شيئاً من الخدمة فليس له من السلطة إلا النزر اليسير الذي أبقاه له تأثير التقاليد.

وكثر التنازع على أراضي الصيد فعاشت الأسر في عراك دائم. ولما كانت الحرب المجدية لا تباشر بغير الرجال والنظام اضطرت الأسر إلى الاجتماع قبائل تحت سلطة رئيس لا مندوحة من ثقل وطأته، فغدت السلطة مركزية. ومثل هذه الظروف المعاشية لا تمكن الخاضع لها من إطراح البربرية وكذلك كانت حال معظم بلاد الغول وقت الإغارة الرومانية ولولا اجتياحها لما خرجت من بربريتها. وبناء على ما تقدم نقول أن الشعوب الصائدة لا تستطيع سلوك سبيل التقدم إلا إذا دهيت بفاتح.

وليس عند الشعوب العائدة من زيادة في السكان ولذا لا تجنح إلى المهاجرة ولو كان أصل سكان العالم صياداً لبقى كثير من بقاع الأرض خلاء إلى يومنا هذا.

أما ظروف المعاش والأنظمة عند الشعوب النازلة في المراعي كالمراعي الشاسعة الموجودة غرب أوربا وفي أواسط آسيا فتختلف عما سبق كل الاختلاف، فسكان هذه الأصقاع لا يزالون متبربرين ولكنهم برابرة ألجأتهم ضرورات الهجرة إلى الانتشار في العالم فغيروا أماكنهم وظروف معاشهم تبعاً لمقتضيات بيئاتهم الجديدة، ومن بقي منهم في فيافيه لم يرق إلى المدنية فلما زايلها تحضر.

ولا يعيش سكان المراعي إلا من نتاج القطعان. وطراز عيشهم هذا هو الذي أوجد عندهم الأسرة بنظامها البطريركي ومثالها ما وجدناه في التوراة. وقد تعددت في هذه الأسرة الأعمال فاشتغل كل فرد منها بعمل وتشارك الجميع في الثروة على اختلاف أنواعها من القطعان إلى أدوات الإنتاج إلى

الأرض إذا كانت ذات نبات. وخضع جميع أعضاء الأسرة لسلطة رئيسها. فالوحدة الاجتماعية الحقيقية ليست الفرد كما هي عند أهل الصيد بل الأسرة التي يتفرد بإدارتها الأب فيكون الرئيس الديني والقاضي والحاكم وله جميع الدرجات الاجتماعية والحرمة التامة. ومثل هذا الظرف لا محل فيه للحكومة المركزية لأنها كانت قاصرة على إدارة الأعمال الحربية وقت الحرب وعلى حماية مظهرها اسماً في بعض الأحيان بفرض جزية تدفع وقت السلم.

ومن مزايا الشعوب الراعية دوام التنقل، ولذا لم نجد عندها ملكية الأرض. فكلما أتت قطعانها على مرعى رحلت عنه وطلبت غيره. وما دامت هذه الشعوب في سهولها الفسيحة – على ما بها من عادة الرحلة – فهي لا تتقدم لأن حاصلات قطعانها ونتاجها تسد حاجتها فلا ترى ما يبعثها على تغيير طراز عيشها.

وقد كان من عظم شأن السلطة الأبوية عند الشعوب الراعية أن ثقل عليها نير التقاليد فلا مفر من رزوحها تحته ما دامت في أرضها، كما كانت الحال في زمن إبراهيم الخليل بآسيا. وكما نجدها إلى اليوم عند الرعاة، ولكن الضرورات القصوى أرغمت كثيراً من الشعوب الراعية على الهجرات الدورية، ونعني بهذه الضرورات تكاثر نسلها وازدياد عددها من جراء سهولة العيش، خلافاً لما عليه الشعوب الصائدة.

وظاهر أنه كلما زاد التزاحم على موارد العيش وجبت الهجرة، ولا أسهل منها على الشعوب الراعية، إذ تدفع بقطعانها أمامها وتحمل معها

جميع ما تملك ولا تفكر في العودة، ففي كل مكان حلت اتخذت وطناً، لأنها ليست بجيوش. تضطر إلى الاشتغال دائماً بوسائل تموينها وحماية قواعد إجراءاتها المتنقلة وإنما هي شعوب على بكرة أبيها ظاعنة.

وللشعوب الراقية قوة عظيمة جاءت من وفرة عدد رجالها وسهولة انتقالهم فلم تستطع أية إمبراطورية الغلبة عليهم. وإذا أغفلنا ذكر ملوك الرعاة الذين فتحوا مصر فهناك الغارات التي شنت على الصين والهند وأوروبا وجاءت بالسكان للأراضي الحالية، وكل هذه الغارات مما قام به الشعوب الراعية. وما كانت رئاسة جنكيز خان وتيمور لنك وأتيلا إلا على قبائل من الرحل زحفت كالجراد المنتشر واجتاحت كل ما وجدته في سبيلها، فلم يتيسر قتالها إلا بعد أن وصلت إلى أقطار لم تعد تصلح فيها معيشة الرحلة.

يرى مما تقدم مقدار الأثر التاريخي للحاصلات الأرضية في كيفية المعاش، وفي النظم الاجتماعية للناس. وفي الوسع أن نذهب بالبحث بعيداً فنقول: إن الشواطئ البحرية مهد لشعوب خاصة تسود فيها الملكية العائلية وروح التقاليد يخالطها شيء من الميل إلى الجديد. وتشاهد عندها الحاجة إلى الهجرة

كما تشاهد عند الرعاة، إلا أنها مقصورة في أهل الشواطئ على الذكران من السكان.

وقد ظهر أيضاً تأثير الحاصلات الأرضية المختلفة في البلاد التي يعاش فيها من الزراعة. واستبان عند بعض الجماعات المختلطة كأهل أشور

وكلدة مثلاً كيف أوجدت العلاقات التجارية الثروة التي رقت الزراعة في أقطار كانت أرضها نزرة النبات وكيف حلت هذه الأراضي المنزرعة محل الصحاري وقت أن زالت الثروة بتغيير المجرى التجاري، وكيف قامت في الأراضي المذكورة الإمبراطوريات الكبيرة.

غير أن برنامج هذا الكتاب لا يمكننا من المضي طويلاً في هذا السبيل، فاكتفينا بإيجاز القول هنا في بعض هذه المسائل الأساسية التي لم يفكر فيها أحد من المؤرخين مع أنها من أهم عوامل التطور في الحضارات والممالك.

وبعد أن أطلعنا القارئ باختصار على تأثير الطبيعة الخارجية في الإنسان نعود فنقول أن تأثير البيئة تعززه أو تضاده عوامل أخرى. فلا يكفي نقل جنس من بيئة إلى أخرى لترى فيه المميزات التي عزوناها إلى مختلف البيئات، وإنما يقال بالإجمال أن تأثير أية بيئة لا يظهر إلا بغاية البطء. ولا يؤثر إلا في شعوب فتية أو شعوب تجدد شبابها بدم حديث. وخفف شدة عمل الوراثة الأصلية عندها مؤثرات وراثية مضادة للأولى.

ومن الخطأ – الذي أظهره العلم الحديث – الظن القائل بأن الإنسان يستطيع اعتياد كل مناخ وأنه أهل للتكيف بكل بيئة. وحقيقة الواقع أن الجنس الذي ينحرف بعض درجات عن مناخه لا يسلم من الفناء. والدليل ان الفرنسيين - على امتلاكهم كل موارد الحضارة الحالية – لا يستطيعون تربية أولادهم في الجزائر، كما لا يستطيع الانجليز تربية أبنائهم في الهند، فيجبرون على إرسالهم إلى فرنسا وإنكلترا. وظاهر أن رجل البلاد الباردة لا

يطيق الجو الحار. ولا ننسى أن مصر افتتحها عشرون شعباً من الشعوب المختلفة فكانت مقبرتهم جميعاً. ولم نعرف جنساً أجنبياً تمكن من تعود مناخها منذ ستة آلاف سنة، وهي اليوم (عربية) ديناً ولغة، ولكنها بقيت فرعونية من حيث الدم.

ولا يتم العمل الذي يجعل به النبات أو الحيوان أو الإنسان نفسه على وفق البيئة الجديدة التي وجد فيها إلا ببطء كبير. وبشرط أن لا يجيء تغيير البيئة فجأة. فالسمك اذا أخرج توا من الماء مات، أما إذا تعود شيئاً فشيئاً طرزاً جديدة من العيش فإن تركيبه يصيره إلى تركيب ذوات الأثداء.

ولقد فعلت البيئات الطبيعية فعلها في أول عهد الإنسانية خاصة، وكان عملها غاية في الأهمية لتختلف الأجناس. ثم ركمت الوراثة أعمالها على توالي القرون، فصارت مميزات وأخلاقاً لا تمحى. فما نراه اليوم من الأخلاق المغروسة في الأجناس إنما ثبت بعد التنوع وتعزيز بعض الأسباب ومضادة أخرى. بحيث أصبح لا يؤثر فيه تغيير البيئة، فالهولندي سيبقى رزيناً ولو كان بخط الاستواء، والغسكوني سيظل ثرثاراً ميالاً إلى المبالغة ولو نزل القطبين.

ولا تؤثر البيئة الطبيعية في جنس معين إلا إذا اختلط هذا الجنس بجنس آخر قد وقع تحت تأثير البيئة الجديدة من أجيال. ويكون هذا الاختلاط بالزواج مثلاً بعد الفتح أو الهجرة، ففي هذه الحال تكون الوراثة محلولة العري قد زال بعضها، فتبدو قوة أثر البيئة على أشدها. وإذا طال عليها العهد أخرجت جنساً جديداً يتناول مميزاته من الجنسين الأوليين.

وما قلناه في الملاحظة الأخيرة – عن كيفية فعل البيئة الطبيعية – ينطبق على البيئة الأدبية سواء بسواء، فما البيئة الأدبية إلا الأفكار والمعتقدات والتقاليد والعواطف التي جمعها الشعب في عدة قرون ودارت في نفسه وفي نفوس أمثاله. وإذا غير الإنسان بيئته الأدبية فإن المرامي التي تسوقه إليها الوراثة تقوم بكافة المؤثرات الجديدة، ولكن هذه المكافحة تخف عند أولاده، وربما زالت وأمحت عند أولادهم. فالفرنسي الذي ينزل اليابان لا تطاوعه نفسه على ترك ابنته تجمع البائنة من البغاء، مع أن هذه الطريقة مرعية في اليابان، ولكنه إذا ترك أولاداً وأحفاداً تزوجوا من يابانيات، وعاش جميعهم في اليابان، فقد يمكن أن يرى خلفهم حسناً ما كان يراه السلف معرة، بعد مضي بعض أجيال.

ولقد يذكر القارئ إننا عند كلامنا على الدستور الأدبي الأخلاقي كنا قد بينا قوة الرأي العام والعرف، فهو صورة البيئة الأدبية وجماعها، ولا يستطيع أحد خروجاً عن سلطانه. ثم أنه لما كان وليد العوامل التي كونت الجنس شيئاً فشيئاً، فقد يكيف العقول على ما يقتضي. ويخضعها كل الخضوع أو بعضه لنيره.

وجميع ما مر يفهمنا ترابط الأسباب المسيطرة على سير الأشخاص والأجناس والشعوب، وكل سبب يؤثر في الآخر بحيث لا يتفرد أحدها بالسيادة المطلقة. فلا ينبغي إذن الاقتصار على اعتبار كل منها على حدة. بل لابد في العلم الاجتماعي الصحيح من قياس تفاعلها وحسبان نتيجتها الموحدة، كما نحسب القوة الموحدة الناشئة من جذب عدة أجسام لجسم واحد، ولا نزعم أن هذا في الإمكان الآن، فإذا تيسر فإنما يكون بعد كثير من القرون.

٢

تأثير الجنس

لما ظهرت الأجناس البشرية في التاريخ كانت قد اكتسبت مميزاتها وطبائعها التي لم تتغير بعد ذلك إلا ببطء كبير. وأقدم الصور البارزة المصرية – الممثلة لأشكال الأمم المختلفة التي احتكت بالفراعنة – تدلنا على أن ترتيبنا الحالي لأجناس البشر كان ممكن التطبيق في أول زمن التاريخ.

إن الأجناس البشرية – أو بالتعبير العلمي مختلف أنواع البشر العائشة على سطح الأرض – قد تكونت أثناء مئات الألوف من السنين التي تقدمت الأزمنة التاريخية. وتكونت – من غير شك – كما تكونت جميع الأنواع الحيوانية بالتحولات البطيئة الناجمة عن اختلاف البيئات، وانتقاء الانتخاب الطبيعي، وبقاء الأصلح، وتراكم أفعال الوراثة. وإذا عرفنا القوانين العامة لهذا التطور البطيء فإنا لا نعرف تفصيلاته، ولا نشتغل بها هنا. وإذا أتينا بالأجناس التامة التكوين فمقصدنا الدلالة على عظم فعل الطبائع الأدبية والخلقية في تطور المدنية عند الشعوب التي ارتقت فيها هذه المدنية. إذ لابد – في فهم تاريخ الشعوب وأصل نظمها ودستورها الأدبي ومعتقداتها – من دراسة تركيبها العقلي قبل كل شيء.

ومن الخطأ أن نبحث عن أسباب اختلاف الشعوب في المميزات التشريحية. كما لج في ذلك المتقدمون. لأن لون الجلد أو الشعر أو شكل الجمجمة أو حجمها لا تأتي بغير تقسيم جاف. و(علم النفس) هو القادر وحده على إيضاح الفروق الحقيقية الموجودة بين الأجناس المختلفة، وهو

الذي يدلنا على أن الشعوب التي تتشابه عقلياتها تتشابه حظوظها إذا أحاطت بها ظروف متشابهة، مهما اختلفت المظاهر الخارجية لهذه الشعوب. ولهذا السبب يمكن مقارنة الانجليزي الحاضر بالروماني القديم، فهناك مشابهة أو قرابة جلية بين عقلية الانجليز والرومان، فخلقهما قوى لا يذلل، واحترامهما لنظمهما، وأهليتهما لتغييرها ببطء وبلا اضطراب، وكفاءتهما في بسط السلطة على الشعوب والاحتفاظ بالمستعمرات واحدة، مع أن مظهر الانجليزي يختلف عن الروماني اختلافاً تاماً، لأن الروماني غليظ قصير قوي برنزي لون الجلد اسود العين والشعر، اما الانجليزي السكسوني فمرتفع القامة مستطيل الوجه أبيض لون الجلد صافي العينين أشقر الشعر.

ولا مندوحة لنا الآن من الاكتفاء بالتفرقة بين الأجناس البشرية بالمميزات النفسية، إلى أن تبيح لنا دراسة المخ والتقدم فيها معرفة الفروق المخية المقابلة لمختلف صيغ الشعور والفكر، والمرجح اليوم إننا بعيدون عن هذه المعرفة جد البعد.

والعنصران الأساسيان اللذان يجب فحصهما دائماً عند الشعب المراد تفهم أحواله هما طبعه وذكاؤه. ونجاح أي جنس في هذا العالم يرجع إلى طبعه أكثر مما يرجع إلى ذكائه لأن الشخص أو الجنس يسير في الحياة بالطبع أكثر من الذكاء. خذ مثلاً روما الساقطة فقد كان فيها من العقول النيرة أكثر مما كان بها في أوائل أزمان الجمهورية؛ كان فيها إبان سقوطها المتفننون المهرة والخطباء الفصحاء والكتاب المجيدون بالمئات، وما كان يعوزها إلا الرجال من ذوي الخلق الناضج القوي، إن قل اهتمامهم ببدائع الذكاء فهمهم الأكبر قوة المدنية التي شادوا عظمتها. ولما فقدت روما من

نعني من أمثال هؤلاء الرجال غلبتها على أمرها شعوب أقل منها في الذكاء بكثير وأكبر في البأس. وغير خاف أن فتح العالم القديم الإغريقي اللاتيني – المتعلم المتنخل – على يد قبائل عربية متبربرة يعد مثلاً آخر من هذا النوع، والتاريخ ممتلئ بأمثال ذلك، وسيجيء المستقبل أيضاً بأمثلة أخرى. وبناء على ما تقدم نقول: إن طبع الشعب أو خلقه له من المكانة أكثر مما لذكائه من حيث الرقي التاريخي، أما من حيث مستوى الحضارة فالأولوية للذكاء. ومع هذا فعمل الذكاء لا يتم إلا بشرط أن يكون مبدعاً لا ممثلاً فقط، فالأمم التي لها ذكاء ممثل – كالفينيقيين قديماً والمغول بعد ذلك والروسيين الآن – تستطيع أن تكتسب الحضارة الأجنبية عنها على قدر ما، ولكنها لا تتقدم بما تكتسبه ولا تبتدع. أما الشعوب المختصة بالذكاء المبدع – كاليونان في القدماء و(العرب) في القرون الوسطى – فإليها يرجع الفضل في التقدم العام الذي نفع الإنسانية جميعها وأفادها، لا كالفتوح الحربية التي لا فائدة منها إلا لشعب واحد.

ولا غرابة فيما ذكرنا، فترقي الذكاء المبدع – نعني خاصة تأليف الأفكار ورؤية مشابهاتها البعيدة والفروق بينها – إنما هو المرجع لكافة المكتشفات، وهي الموهبة التي مكنت (نيوتن) من إدراك الشبه بين سقوط تفاحة وجاذبية كوكب، وأفهمت (فرنكلين) التشابه بين الشرارة الكهربائية والصاعقة.

وأقل ملاحظة سطحية تدل على أن أفراد أي جنس يختلف بعضهم عن بعض منظراً وخلقاً وعقلاً، ولكن التدقيق يبين أن تحت اختلاف الظواهر مجموعة من الأخلاق مشتركة بين جميع أفراد الجنس، ثابتة فيهم، تسمى في مجموعها "الطبع القومي للشعب" فإذا تكلمنا طبيعياً أو أدبياً

عن إنكليزي أو ياباني أو زنجي اختصصناه في الحال. ونحن على صواب – بمجموعة من الملامح العامة هي مركز طباع النموذج الوسط لجنسه، ونفعل هذا عفواً مع أنه عين ما يفعله العالم الطبيعي الذي يصف نوعاً من الحيوان، فإذا وصف كلباً أو جواداً، انتخب الطباع العامة التي تطبق على مختلف أجناس الكلاب أو الخيل.

وللطباع القومية المتولدة عند الشعوب المتشابهة – باستمرار فعل البيئات والنظم والعقائد الواحدة وقتاً طويلاً – دخل أساسي في حياة هذه الشعوب ولو خفي عن الأبصار، فهي تمثل ماضي الجنس برمته ونتيجة تجارب أسلافه وأعمالهم، ولا يجيء شخص إلى الوجود إلا ومعه من هذا الميراث، فيعيش ما يعيش ولماضي اجداده الأثر الكبير الدائم في جميع أعماله، وليس طبعه أو مجموع العواطف التي ترشده في الحياة إلا صوت أسلافه، وما أقوى صوت أولئك الأموات فالعقل لا يغلبه مهما ضاده، وما أعظم ثقل الماضي وأكبر أثره، على قلة شأن فعل البيئة في حياة الفرد القصيرة؛ فإذا أريد فهم تطور شعب فأحق أموره بالدرس تاريخه بعظم نفوذ الماضي، وفي ماضي هذا الشعب يبحث الإنسان عما يوضح له حاضره.

وهناك أجناس بشرية كما توجد أنواع حيوانية، في بعضها اختلافات كثيرة وفي الأخرى اختلافات قليلة. وكلما قلت الاختلافات في الجنس – أو كلما قل بعد هذه الاختلافات عن النموذج الوسط – كثر تماثل هذا الجنس مثل الانجليزي الحالي الذي أمحى فيه البريطاني والسكسوني والنورماندي فخرج نموذجاً حديثاً مميزاً.

وإذا تحاذت الجماعات ولم يختلط بعضها ببعض اختلاطاً كافياً بقي الجنس متنافراً، وتعذر تعيين النموذج الوسط لقلة عدد الملامح المشتركة التي تكونه، فالبروفنسي في فرنسا يختلف عن البيكاردي، والأوفرني عن البورغوني. ومع هذا فإذا عز وجود نموذج وسط للفرنسي فهناك نماذج وسطي لبعض الأقاليم غير أنها على شيء من الانفصال من حيث الأفكار والطبع. وعلى هذا فمن الصعب إيجاد أنظمة تلائمهم جميعاً. وليست اختلافاتنا معاشر الفرنسيس – في الأفكار والمطالب والعقائد – إلا بسبب اختلافات تركيبنا العقلي، والمستقبل وحده ربما استطاع محو هذه الاختلافات.

ومن السهل أن ندرك كثرة وجود الأفكار والعواطف المشتركة كلما كان الجنس متماثل الأفراد. وفي هذه المشاركة تكون قوته وبعثه على المضي بسرعة في سبيل التقدم. أما إذا تنافرت الأفكار والتقاليد والعقائد والمنافع فلا مفر من كثرة الانقسامات، ومن بطء سير التقدم أو مضادته. وليس في الآراء أشد بطلاناً من فكرة إخضاع الأجناس العظيمة الاختلاف لنير واحد، فإنه – مهما ثقلت وطأته – لا يكون سلطانه إلا وقتياً، وتاريخ الإمبراطوريات الكبرى – المؤلفة من أجناس متباينة – خير شاهد . فإمبراطوريتا إسكندر وشارلمان تفككت أوصالهما بمجرد زوال اليد القوية المؤسسة التي كانت تمسك بجماع هذه الأوصال. وإذا كان الهولنديون والانجليز قد نجحوا حديثاً في إخضاع شعوب أسيوية تغايرهم كل المغايرة فما ذلك إلا لأنهم احترموا العادات والتقاليد والقوانين التي وجدوها عند هذه الشعوب، وتركوها تدير أمورها بنفسها، وقصروا همهم على أخذ جزء من الضرائب وتعاطي التجارة وحفظ السلم.

وتتضح مما تقدم أهمية دراسة تأليف الشعب لإيضاح تاريخه. وقد ظهر أيضاً أن كلمة "شعب" لا يمكن أن تكون مرادفة لكلمة جنس، فالإمبراطورية والشعب والحكومة تطلق على عدد – قل أو كثر – من الرجال جمعتهم الضرورات السياسية أو الجغرافية فخضعوا لأنظمة وقوانين واحدة. وقد يكون هؤلاء الرجال من جنس واحد، كما يمكن أن يكونوا من أجناس متباينة. فإذا كانوا مختلفين استحال اندماج بعضهم في بعض وإن عاشوا بمحض الضغط جنباً لجنب كالهندوس الخاضعين للأوربيين. وعلى هذا فلا ينبغي أن يحلم إنسان بإجرائهم على نظم مشتركة. ولا تستطاع إقامة الإمبراطوريات الكبرى المؤلفة من شعوب متغايرة إلا بالقوة ثم لا تلبث أن يودي بها العنف، ولا يبقى إلا الإمبراطوريات التي تتكون ببطء من تخالط الأجناس القليلة الاختلاف تدريجاً بحيث يحتك بعضها ببعض دائماً وتعيش بأرض واحدة تحت تأثير مناخ واحد ولها نظم وعقائد واحدة وإذ ذاك تستطيع هذه الأجناس أن تكون جنساً جديداً متماثلاً بعد بضعة قرون.

قال المؤلف: "إن كيفية اندماج العناصر المختلفة في جنس واحد من الأمور القليلة الوجود. وقد لا حظتها مع ذلك في إحدى سياحاتي عند أناس من أهل الجبال في أقصي غاليسيا تحت جبال تتراس وكتبت مذكرة بذلك ضمنتها ملاحظاتي فأثبتتها الجمعية الجغرافية الباريسية في نشرتها" أ هـ.

وكلما تقادم عهد العالم وازداد ثبات الأجناس على ما بلغت إليه ندر تغيرها وتحولها بالاختلاط. ولا غرابة، فقد كان الماضي الوراثي للإنسان – في زمن ما قبل التاريخ – غير طويل. ولم تكن له نظم معينة وظروف عيش مطمئنة، فكان للبيئات أكبر أثر فيه. أما اليوم فقد يسرت الحضارة

للإنسان التخلص من معظم تأثير البيئات، ولكنه لم يستطع إزالة تأثيرها في ماضية، فثقل الوراثة يزداد وزناً كلما تقدمت الإنسانية في العمر، وهو اليوم بحيث لا يمكن أن تكافح الوراثة إلا بالوراثة، لأنها القادرة وحدها على فصم عرى الطباع الثابتة في جنس ما بمواجهتها بضدها من الطباع.

ولكي تفعل الوراثة فعلها في خلط جنسين بعضهما ببعض يجب أولاً أن لا يكون أحدها أقل عدداً من الآخر بكثير، ثم ينبغي أن لا يكون للجنسين تركيب عقلي أو جسمي غاية في التنافر.

والشرط الأول أساسي لأنه إذا وجد جنسان مختلفان في صعيد واحد استغرق أكثرهما عدداً صاحبه، كما تختفي بضع أسرات من البيض ويضيع أثرها في شعب من السودان، وكما جرى لجميع الفاتحين – الأقوياء بالسلاح الضعاف بالعدد – وما سلم من ذلك إلا الآريون قديماً والانجليز حديثاً. وسبب السلامة ابتداعهم نظام (الفريق)، فإن شدة هذا النظام وقسوته منعتا اختلاط الغالبين بالمغلوبين. إلا أن نظام (الفريق) إنما يعد من الشذوذ والقاعدة العامة أن تحدث المخالطة فيستغرق الشعب المقهور الشعب الغالب بعد قليل من الأجيال ولا يختفي هذا الغالب الفاتح إلا بعد أن يترك آثار حضارته، فمصر لما افتتحها العرب لم تلبث أن استغرقت فاتحيها، ولكن هؤلاء أبقوا لها أهم عناصر الحضارة، نعني الدين واللغة والفنون. وحدث ما يشبه هذا بأوروبا، فيما يختص بجنس الشعوب المسماة لاتينية، كالفرنسيين والإيطاليين والإسبان – وحقيقة الأمر أن عروقهم خالية من أية قطرة من الدم اللاتيني، ولكن النظم الرومانية لما كانت غاية في القوة، وكانت سلطة الحضارة الرومانية غاية في الشدة، بقيت البلاد التي

احتلها الرومان قروناً لاتينية لغة ونظماً، واختصت بالعبقرية الرومانية.

وليس الشعب القوي هو الذي يفرض مدنيته على الشعب الضعيف، فالغالب العكس وهو أن المقهور هو الذي يحتم حضارته على الفائز. والمثل على ذلك شعوب الفرنك فقد تغلبت على الجماعات الغالية الرومانية بالسلاح، فتغلبت عليها هذه بعد ذلك أدبياً، ثم طبيعياً أيضاً إذ استغرقتها بكثرة عددها.

ويرى تغلب المخذولين على المنتصرين بهذا الشكل أكثر مما تقدم فيما كان من الشعوب الإسلامية، فما اضمحل السلطان السياسي للعرب وتلاشى أمره إلا وأخذت ديانتهم ولغتهم وفنونهم في زيادة الانتشار، وأهلها الآن نحو ٥٠ مليوناً في الهند و٢٠ مليوناً في الصين، وسيكونون في أفريقية بعد زمن ما مدني هذه القارة الشاسعة.

وإذا أوجدت اتفاقات الغارات والفتوح جنسين متباينين في مكان واحد فليس من الممكن أن يندمجا بالقوة. وإلا كانت النتيجة القضاء على الجنس الضعيف، فارلندا التي افتتحت منذ أجيال مضت لم تخضع قط. ولكن سكانها في تناقص مستمر. ويشتد هذا النقص كلما كان الشعب من الشعوب المنحطة، كما حدث في (التسمانيين) إذ لا نعرف اليوم واحداً مثل جنسهم وسينتهي أمر ذوي الجلود الحمراء بمثل ذلك. فكل شعب منحط يوجد بإزاء شعب راق لا مفر له من الهلاك، ولا داعي للإبادة المقصودة والقتل العمد ليتم الدمار في مجرد وجود الشعبين وجهاً لوجه كل الكفاية.

ألا ترى أن الشعب الراقي لا يحل ببلاد بربرية ومعه صيغ وجوده

المتشعبة ووسائل معاشه المتعددة إلا ويجمع في يده جميع موارد القوة ويخضعها بسهولة وسرعة لم تكونا قط للأهالي الأصليين فيصبح هؤلاء – بعد أن كانوا سادة مواردهم – لا تصل أيديهم بعد الجهد إلى أكثر من فتات موائد المنتصرين. وتتدلى بهم الظروف بحيث يقضون جوعاً إذا لم يحصدهم الحديد أو تودي بهم المساوئ التي يجيئهم بها الوافدون.

انقطعت المذابح الدورية للهنود في أمريكا الشمالية أو كادت، ومع هذا فأرباب الجلود الحمراء لا يزالون يتقهقرون ويتناقصون أمام الجنس الأبيض وما ذلك إلا لأنهم خاضعون لقوانين وراثية أصبحت من ثقل الوطأة بحيث لا تمكنهم من تغيير ما بهم، فلا يعرفون العيش من غير الصيد ولا يريدون سواه، فلما اجتاز الانجليز السكسون اراضي الصيد القديمة ومهدوها وزرعوها لم تبق لهنود أمريكا مواردهم القديمة. وأنكى من هذا أنهم لم ينتفعوا بشيء مما أعطوه من الحقول والمنازل المشيدة فقد أسكنوا بها خيولهم وبقوا تحت الخيام كما كان آباؤهم، وآثروا الموت على إنزال المحراث من أيديهم منزلة السلاح.

وإذا اختلط جنسان مختلفان لا تساوي بينهما في درجة التهذيب فلا خطر على الجنس المنحط. بل الخطر كله على الراقي، لأنه يصير إلى الزوال ويحل محله جنس وسط يمثل في عقليته متوسط الجنسين الذين خرج منهما، وهو مع ذلك أحط من كليهما أدبياً، لأن الوراثة فرقت عناصر الماضي، فيظل الفرد بين خلقين متباينين لا يتبع واحداً منهما. وأغلب ما يأخذه هذا الفرد عن الأجناس التي خرج منها عيوبها، نعني الدرك الأسفل للبربرية الموجودة عند كل الشعوب مهما كان مستواها. ولهذه البربرية

اتصال بجذور الحيوانية الأولى التي لا نزال نحمل أصرها. وما بني على مخالطة الهندوسي للأوربي يدلنا على سوء نتائج الاختلاط المذكور بقطع النظر عما هو أنكى منها مما نجم عن مخالطة الزنجي للأبيض.

إن المخالطات لم تسر بالجماعات قط في سبيل التقدم، وكل ما تفعله أنها تنزل بها – عن الحضارات التي أورثها إياها الاتفاق – إلى مستواها هي وأمامنا مثل على هذا لا يزال موجوداً في السكان الإسبانيين الأمريكيين حالاً، فاختلاط الجنس الإسباني الفخور الحاد – الذي عمر في القرن السادس عشر – بشعوب منحطة ولد أمماً فاسدة، لا بأس لها ولا مستقبل، ولا قدرة على أضعف مشاركة في ترقية الحضارة.

ولقد أدركت أقدم الشعوب المتحضرة سوء نتائج مخالطة الجنس الراقي للأجناس المنحطة فابتدعت نظام (الفريق) لمنع الجمع بين أناس من أجناس مختلفة، ويوجد هذا النظام عند كثير من الجماعات القديمة ولولاه لما تخطى الإنسان فيما نظن الدرجات الأولى من الحضارة. وبفضله أيضاً وحياطة القانون الديني له نجا الآريون القدماء من مخالطة القبائل السوداء المتوحشة عند دخولهم الهند فلم يصبهم التدلي والاستغراق اللذان كانا لهم بالمرصاد وتمكنوا من إقامة حضارتهم الباهرة على ضفاف (الكنج) وحفظ لهم التاريخ ذكرها. وظاهر مما تقدم أن هذا النظام كانت له اليد الطولي في تاريخ الحضارات الأولى، فإذا لم نر فيه اليوم عدلاً بالقياس على أفكارنا الحديثة فإنه دام عند كثير من الشعوب بالضرورات التي أوجدته وبالقوة التي اكتسبها بطول زمن فعل التقاليد.

ولكن المخالطة – الضارة بين الأجناس المختلفة المتفاوتة في الرفعة – لا تضر إذا كانت بين أجناس مختلفة الصفات ولكن بدرجة تكاد تكون واحدة من الرقي، لأن صفات الأجناس في هذه الحالة يكمل بعضها بعضاً فتزداد قيمة ونفعاً. ولا يخفي أن جمهورية الولايات المتحدة – التي يقدر لها التفوق قريباً على جميع الأمم المتحضرة – إنما تكونت من تمازج الأجناس الراقية في التهذيب المؤهلة الصفات للألفة، وما تهيأت الفتوة لهذه الولايات المكونة من الانجليز والإيرلنديين والفرنسيين والألمان وغيرهم من الراقين إلا لأن العناصر التي تخالطت هناك جاءت منتخبة من أقدر الموجود عند تلك الأمم ومن أقواها، فمعظم الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة كانوا من أهل الإقدام وعشاق الضرب في الأرض، ضاقت بهم الآفاق المادية في بلادهم الأصلية، وزمت امامهم الآفاق الأدبية أيام إصابة الاستقلال الخلقي بالاضطهادات الدينية، فاستيقظ فيهم العزم وزال الروع من يوم هبطوا القارة الجديدة، فألفوا أمة لا تحجم عن أي عمل ولا ينقصها إلا الروح الفني الذي كان يعوز أجدادها. ولا غرابة، فالذين يغامرون بالمشي في مناكب الارض ويسافرون لافتتاح عالم مجهول لا يتخيرون من الشعراء والظرفاء وأهل الفنون والأحلام.

ويظهر أن ما اخترناه من الأمثلة لتعزيز الأفكار التي بسطناها هنا قد أبعدنا عن المدنيات الأولى المقصودة بهذا الكتاب، غير أنها تضمنت مع ذلك القوانين العامة العاملة من أول التاريخ فالإرتكان عليها يمكننا من الدلالة على تأثير هذه القوانين وإدراك بعض أسباب تطور الشعوب.

وبهذه القوانين العامة تفهم كيف كان هذا الفتح أصلاً لمدنية باهرة، وكيف

أدى غيره إلى عهد فوضى وتخبط، وبه نفهم كيف تيسر للشرقي دائماً وضع نيره وعاداته على عاتق مشارقة عقليتهم قريبة من عقليته، وبه ندرك سبب تفاقم أمر المعارك بين الغربيين والشرقيين وانتهائها بسحق المغلوبين، ولماذا كان ذاك الشعب أو غيره مستعمراً، وكيف عرف الاحتفاظ بسلطته على أمم بعيدة لأنه كان من جنسها أو لأنه احترم عاداتها وعقائدها.

وقبل أن نترك أمر العموميات في مسألة الجنس الرئيسية في تاريخ الحضارات نقول كلمة عن المسألة الكبرى، ونعني بها أكان اطراد تقدم الإنسانية مؤدياً إلى تساوي الأجناس، أم إلى زيادة الاختلافات بينها.

والجواب على هذا سهل إذ يمكن القول بأن المستوى الراقي للتهذيب الإنساني في صعود دائم، ولكن الإنسانية لما كانت لا تخلو دائماً من وجود أمم في أسفل الدرجات فقد تزداد سعة الهوة بينها وبين الأمم الراقية كلما ارتقى التهذيب.

أن الرقي ميسر للجماعات البشرية، حتى المنحطة منها، ولكن المعروف عن قانون الترقي أن سيره يزداد سرعة كلما تقدم صعدا. فالأجناس الراقية تتطور اليوم بخطى واسعة. على حين أن غيرها لابد له من قرون طويلة الاجتياز ما اجتازه أجدادنا قبل الوصول إلى ما وصلنا إليه. وليت شعري في أية درجة من الرقي نكون نحن عندما تصل الأمم المنحطة إلى درجتنا من الحضارة. إن نسبة البعد بيننا وبينها تبقى كما هي ما لم يدركنا الزوال. وبناء على ما تقدم يصح القول بأن الأجناس كلما تحضرت لا يمكن أن يكون سيرها إلى التساوي بل إلى زيادة الاختلاف. وهذا النظام

يسرى بحذافيره على الأشخاص، لأن الحضارة لا تؤثر تأثيراً واحداً في عقول غير متساوية، فالراقية منها يزيد غنمها عن المنحطة وبذلك يزداد الفرق بينها حتماً في كل جيل، ويزداد أيضاً ما دام تقسيم العمل قد اختص الطبقات الدنيا في الجماعات بعمل واحد يتكرر ولا يتغير، فيميت فيها روح الابتكار. والمشاهد الآن أن المهندس الذي يشتغل باستحداث آلة، يحتاج إلى ذكاء أكثر مما كان يحتاج إليه المهندس القديم منذ قرن من الزمان، وأن العامل الحالي على عكس ذلك فلا يحتاج إلى مقدار من الذكاء في إتقان صنع قطعة من قطع الساعة طال مرانه على صنعها طول حياته كالمقدار الذي كان أجداده في حاجة إليه باضطرارهم إلى صنع الساعة بأكملها.

وليست الاعتبارات التي ذكرناها بمؤسسة على أسباب نظرية فقط، فقد حاولنا تعزيزها ببراهين تشريحية، فدلتنا دراسة الجمجمة عند الأجناس البشرية على أنه إذا قلت الاختلافات بين أحجام جماجم أفراد مختلفين من المتوحشين فالاختلافات عظيمة بين جماجم أفراد الجماعات المتحضرة. وعلى هذا فلا جدال في اتساع الهوة بين الطبقات العليا في جماعة ما والطبقة السفلى فيها، وكلما ارتقت الحضارة زاد اتساع هذه الهوة.

وإذا قلنا أن أفراد الجنس يختلفون كلما أمعنوا في الحضارة، فقد نستطيع أن نستنتج من هذا ازدياد اختلافهم عقلياً كلما زاد تحضر الجنس، ولا جدال في ارتقاء المستوى الأوسط، فقد أبان لنا التشريح أن متوسط سعة جمجمة الأوربيين لا يزيد كثيراً عن سعة جمجمة المتوحشين، وأبان لنا أيضاً أن المخ الوسط يزيد بشيء من البطء، على حين أن الفرق في السعة بين الجماجم العظيمة والصغيرة في الجنس الواحد يرمي دائماً إلى الازدياد.

ويؤيد علم النفس المقارن للشعوب هذه النتائج التشريحية، وقد اقتنعت – بعد ملاحظات متكررة أتيحت لي في أسفاري – بأن الطبقات الوسطى للشعوب الآسيوية الصينيين والهندوس لا تنحط عن الطبقات الأوربية المقابلة لها. فالفرق الحقيقي بين تلك الشعوب وبيننا أنها ليس فيها أولئك الرجال العظام الذين تجتمع فيهم قوة الجنس، فيرجع إليهم الفضل في الاكتشافات العظمي التي ترفع مستوى الحضارة. وبديهي أن هؤلاء الرجال يندر وجودهم كلما نزل الباحث في سلم الأجناس ولا وجود لهم قط بين المتوحشين، وعلى كثرة عدد عظماء الرجال يقاس مستوى الشعب.

وقال المؤلف: "إن أغلب الآراء المدونة بهذا الباب خصوصاً الاختلافات التصاعدية للأجناس والأشخاص بل للذكر والأنثى في رقي الحضارة إنما هي نتيجة بحوثنا الشخصية. فمن أهم هذه البحوث فهي مبسوطة في تواليفنا ومذكراتنا التي نشرناها في أوقات مختلفة وهي: بحوث تشريحية ورياضية في قوانين اختلافات حجم الجمجمة (أقره المجمع العلمي والجمعية الأنتروبولوجية بباريس). ورسالة في فحص ٤٢ جمجمة لرجال مشاهير من مجموعة متحف باريس (نشرتها الجمعية الإنتروبولوجية). وكتاب الإنسان والجماعات وأصولها وتاريخها (الجزء الثاني منه). وكتاب من موسكو إلى جبال تتراس في دراسة تكوين الجنس (نشرته الجمعية الجغرافية بباريس). وكتاب الإنتروبولوجيا الحالية ودراسة الأجناس (نشرته المجلة العلمية). وكتاب علم النفس كعنصر الترتيب الأشخاص والأجناس (نشرته المجلة الفلسفية) أ هـ.

وتدل دراسة الحضارات المختلفة على أن الفضل في كل تقدم تم إنما

يرجع إلى ثلة من عليه الرجال، ولا عمل للجمهور إلا الاستفادة من هذا التقدم، عدا أنه يكره من يتفوق عليه، وما أكثر عدد المفكرين والمخترعين الذين استشهدوا ضحية له وهم مع ذلك زهرة الإنسانية، وعبقريتهم مجلى ماضي الجنس وأجياله، وهم المجد الحقيقي للأمة وجماع فخار كافة أفرادها.

ولا يكون ظهور أعاظم الرجال اتفاقاً فهم أبناء وقتهم وجنسهم، وتعزيز ظهورهم ورقيهم تعزيز التقدم المثمر للإنسانية جميعها، فإذا تركنا أنفسنا لأحلام المساواة العامة وأعمانا الكبرياء والغرض كنا أول ضحية. لأن المساواة بين الناس لا توجد قط إلا في التوسط، وعلى هذا فهي ظل الغيرة المنحطة ولم تتحقق إلا في أزمنة الوحشية.

لا تسود المساواة العالم إلا إذا انحطت أسباب قيمة الأجناس إلى مستوى ما عندها من الدرجات الوسطى، لأن ارتفاع المستوى العقلي لأحقر فلاح إلى مثل عبقرية (لافوازييه) لا يتم إلا في قرون. أما إطفاء شعلة هذا العقل الراجح فلم يستلزم واأسفاه أكثر من ثانية واحدة جنت جنايتها فيها مدية المقصلة (يشير المؤلف إلى قتل العالم لافوازييه بآلة الجيلوتين الثورية).

ولكن أعمال عظام الرجال – مهما عظم شأنها في ترقية الحضارة – ليست كما يتوهمه الكثيرون، إذ هي منحصرة في توليف جميع جهود الجنس. وما اكتشافاتهم إلا نتيجة سلسلة طويلة من الاكتشافات التي تقدمتها. فهم يبنون بنيانهم بأحجار تأتي غيرهم في قطعها.

ولقد درج المؤرخون – الذين يتوخون البساطة في التفكير – على

وضع اسم رجل بجانب كل اختراع، على حين أن المخترعات الكبرى التي غيرت الدنيا كالمطبعة والبارود والبخار والتلغراف الكهربائي لم يأت بواحد منها عقل فرد، والرجوع إلى أصل اكتشافها يدل دلالة جلية على أنها وليدة سلسلة من الجهود التحضيرية جاء المخترع النهائي تاجاً لها. خذ مثلاً ملاحظة (غاليليه) الخاصة بتساوي أوقات تذبذب المصباح المعلق، فهي التي مهدت الاختراع (كرونومتر) الضبط الذي نتج عنه تمكن الملاح من الاهتداء إلى طريقه في الأقيانوس. ومثل بارود المدافع إنما خرج من النار الإغريقية بعد تغيير طويل. أما البخار فمحصل مجموعة مخترعات استلزم كل منها أعمالاً كبيرة.. ولم يكن الإغريقي يستطيع تصور القاطرة البخارية ولو أوتي مئة عقل كعقل (أرخميدس). ولا غرابة لأن صنعها كان يقتضي انتظار التقدم الذي تقدمته الميكانيكا بجهود ألفي سنة.

ومهما ظهر العمل السياسي لكبار رجال الحكومات بمظهر العمل المستقل عن الماضي فإنه لا يخالف السنة التي يجري عليها عمل كبار المخترعين.

ولقد بهر بعض الكتاب مثل (هيجل وكارليل وكوزان) وغيرهم كبر شأن الساسة الذين غيروا حياة الشعوب سياسياً، فأرادوا أن يجعلوا منهم أنصاف آلهة يسجد لهم كل شيء، ولعبقريتهم وحدها القدرة على تعديل حظوظ الأمم. ولكنا نقول نعم إنهم يقدرون على تدمير جماعة من الجماعات البشرية، ولكنهم لا يستطيعون تغيير مجرى تطورها، فهو أمر تعجز عنه عبقرية (كرومويل) و(نابوليون) وغيرهما.

ونعم أن كبار الفاتحين يستطيعون تدمير المدن والجماعات والإمبراطوريات

بالحديد والنار، كما يتيسر لطفل إحراق متحف حافل بكنوز الفن، ولكن هذه القدرة المدمرة لا تغرنا فنغفل عن حقيقة مهمتهم الكبرى.

أن عمل كبار الساسة لا يدوم إلا إذا عرفوا – عرفان قيصر وريشليو – توجيه جهودهم جهة مطالب الوقت، وهناك يكون السبب الحقيقي لنجاحهم قد وجد عادة قبل أن يخلقوا. ولو تقدم زمن قيصر وريشليو عن وقته المعلوم قرنين أو ثلاثة لما استطاع الأول إخضاع الجمهورية الرومانية الكبرى لقانون سيد واحد، ولعجز الثاني عن تحقيق الوحدة الفرنسية.

إن عظاء الرجال في السياسة هم من تلمسوا المطالب التي ستولد وأدركوا

الأمور التي هيأها الماضي فاستبانت لهم السبيل الواجب سلوكها.

ولربما غابت عن الجميع رؤية هذه السبيل، فدفع التطور المحتوم بالأمم إليها، وكان من شأن الساسة أن شوهدوا على رئاسة أمورها فقط، فلا خلاف إذن في أن الساسة يفعلون فعل كبار المخترعين، فيؤلفون بين نتائج أعمال سبقتهم بزمن طويل.

ولا ينبغي أن نغالى في وجه الشبه، فلكبار المخترعين دور هام في تطور المدنية، وليس أمامنا من دور واضح في التاريخ السياسي للشعوب.

وترقي المدنية لم يمش دائماً موازياً لترقي التاريخ، فكبار الرجال الذين يرجع إليهم الفضل في المخترعات من المحراث إلى التلغراف، مما تمتعت به الإنسانية، لم تكن لهم قط الطباع الضرورية للمجيء بدين أو لافتتاح إمبراطورية وتغيير مجرى التاريخ، لأن المفكر يرى من تشعب المسائل ما لا يبعثه على الاقتناع التام بالسياسة، فتقل في نظره الأغراض السياسية الخليقة بجهوده، فلا

يجد في أثرها بهمة، بخلاف من تخصص في الأمور السياسية.

ومجمل القول أن المخترعين يستطيعون تغيير المدنية، أما أهل التشيع وذوو الذكاء المعين والطبع القوي والإحساسات الشديدة ففي وسعهم إقامة الأديان والإمبراطوريات وإثارة العالم. والمثل على ذلك أقوال مُحَمَّد (ﷺ) فقد أوجدت القوة اللازمة للتغلب على العالم القديم الإغريقي الروماني، وصوت بطرس الناسك الذي ساق عدة ملايين من الغرب فانقضوا على الشرق، ومذهب (لوتير) الذي أضرم في أوربا الحرب بين سكانها، ولا عجب في كل ما تقدم فصوت مثل صوت (غليليه) و(نيوتن) ضعيف الصدى بين الجماهير، ولذا قلنا ونقول أن أفذاذ المخترعين يغيرون المدنية، وأرباب التشيع للأديان ونحوها يخلقون التاريخ.

الفصل الثاني

تأثير تنازع البقاء به

"وتأثير موهبة القدرة على التغيير والتحول والأماني والمعتقدات"



تأثير التنازع على البقاء

التنازع على البقاء حالة طبيعية دائمة في الأجناس البشرية كما في الأنواع الحيوانية، وليست كما أرادوا أن يروها – بقية من البربرية آخذة في الزوال. فالحرب كما يبدو شرط أساسي لحياة الشعوب وترقية المدنية.

إذا كانت الحالة المذكورة عادة من عادات أزمان الوحشية قل ظهورها شيئاً فشيئاً وندر، وقلت دمويتها رويداً رويداً وخفت، ثم انتفى وجودها – على ما نرى – بين الأمم العريقة في التقدم، فكان حظها كحظ غيرها من أشكال النظم الأولى كالمشاركة في الأموال، وكالعبودية، والأمومة، ولكنها على عكس ما تقدم، فإن فن الحرب – وهو أول ما وقفت الإنسانية نفسها عليه – لا يزال له من عنايتها وعبقريتها وتقديرها النصيب الأوفر، فهو الذي تختصه الحكومات الحاضرة بأعظم الأوقات وأنفس الأموال، وأتم

العنايات. وها هي مسألة قتل أكثر ما يمكن من جنود في أقل ما يمكن من وقت، من أمهات المسائل الموضوعة نصب عيون الأمم. وها هو تقدم العلم قد استخدم في إتقان آلات الحرب، فأصبحت قوة التدمير أهون مما كانت عليه، وهذا – عدا اضطرار الدول العظمى بأوروبا إلى تجديد سلاحها في أوقات مختلفة فتتكلف أبلغ النفقات، وعدا ذهاب الاستئصال العلمي بكثير من الأرواح البشرية في نسبة تتصاعد على توالي الأيام – لا جدال معه في أن حروب المستقبل ستربي في دمويتها على حروب الانقلاب الفرنسي والإمبراطورية الأولى التي كلفت أوربا عدة ملايين من الرجال.

وليس هذا القتال الدائم الملائم للغريزة الإنسانية الخالدة بمقصور على المكافحة بقوة السلاح وإهراق الدماء، بل يتناول أيضاً كثيراً من الوسائل ظاهرها سلمي وهي في الحقيقة شديدة قاسية، فالمنازعات الصناعية والتجارية التي تقضي على أقطار برمتها وتغدق الثروة على أقطار أخرى لا تقل في نتائجها عما تنتجه أشد الوقائع إسالة للدماء.

ويسود التنازع على البقاء في كل مكان يوجد فيه قوى يغلب الضعيف ويسحقه، وهذا التنازع هو الذي يغري الجيوش بعضها ببعض، ويجيء إلى أسواقنا بقمح الهند وأمريكا فيقلق بال فلاحينا ويطفئ مواقد المصنع العاجز عن مزاحمة مصنع آخر أحسن منه عدة أو إدارة، وهو الذي يرقى العامل المتعلم إلى الصف الأول ويرجع بالجاهل العاجز إلى المؤخرة، ولو ضمهما مصنع واحد.

ومن العبث أن يجتهد الفلاسفة الإنسانيون في إنكار قوة حق الأقوى؛

فهو القانون الحتم الدائم، وله الأثر الاكبر في تقدم الإنسانية.

ولا شك هناك في غلطة نتائج هذا القانون إذا كان منبع القوة العضلات وحدها، ولكننا نرى أن قوة الذكاء تعلو القوة الطبيعية، ما دامت تخترع السلاح الذي يكسر أقوى السواعد، وتبتدع الحركات الحربية الماهرة التي تدع السلاح عاجزاً عن فعل فعله، وتبتكر الآلة العظيمة التي تحل محل ألف عامل في المعمل.

ويعد قانون التنازع الدائم على البقاء مهمازاً للذكاء وأقوى مؤثر في الطبع والخلق. فيزيد المرء عزماً ورصانة وصبراً وبعداً في النظر. وكل هذه من أهم عناصر النجاح في حياة الأفراد وحياة الشعوب.

ولقد قضى قانون الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح على المستضعفين والعجزة بالزوال من يوم ظهر التنازع على البقاء بين أفراد النوع البشري، وكان مبتدأ ظهوره الوقت الذي عرف فيه الناس إخوانهم في الحياة.

وبالانتخاب الطبيعي المستمر على توالي العصور اكتملت الأنواع الحيوانية واكتمل نوعنا أيضاً.

ولقد كان من دوام التنازع على البقاء، وما نتج عنه من انتخاب الأصلح في كل جيل، أن اضطرت الشعوب كما اضطرت الأفراد إلى عدم الوقوف في سيرها إلى الأمام وإلا تخطاها وداسها من هو أكفأ منها وأكبر إقداماً. فكان هذا من أقوى عوامل التقدم. ولا محيص من ازدياد تأثير هذا القانون كلما ازدادت الفروق بين الأجناس والطبقات فازدادت رفعة بعضها واشتد وضوح ضعة البقية.

لهذا القانون إذن تقع لا يجحد ولابد منه وإن كان ثقيل الوطأة. ومما ميز به أنه جمع في فعله بين سلامة النظر والعماية، و بين الإحسان والقسوة. وفي وسعنا أن نلعنه ما شئنا ولكننا لا نستطيع تحاشيه.

وما قل فعل هذا القانون في صقع ما إلا وقل سير التقدم. فعظمة روما إنما أوجدتها الحروب الدائمة بينها وبين جيرانها من يوم وجدت. وبهذه الحروب نالت الوحدة والهمة والنظام وحب الوطن وجميع الصفات الحربية التي جعلتها سيدة العالم. ولما تم لها قهر إيطاليا كانت مزاياها العسكرية قد بلغت الأوج فوقفت هناك. ثم بدت لها قوة أدبية اكتسبتها تدريجاً وكانت لا تقل عن قوتها المادية عظمة، فهبت من ثم لافتتاح العالم وأحرزت المجد العريض، حتى إذا لم يبق لها من خصم وزالت حاجتها إلى القتال ابتدأ انحطاطها. ولما استنامت للراحة وأمنت على إمبراطوريتها الشاسعة من المزاحم لفقدانه أخذت في التدهور وانتهى أمرها إلى الدمار.

إن جميع الأمم التي أوتيت حدوداً طبيعية قوية ومناخاً طيباً ووفرة في الطعام فانتفى عندها وجود التنازع أو كاد بقيت في حال حضارة منحطة. والمثل الصينيون فإن إمبراطوريتهم الشاسعة لم تعرف عدواً ولا خصماً من مدة طويلة، والمثل الثاني وهو أحط من الأول شعوب الأقيانوسية فإن كلا منها عاش بمعزل عن غيره في جزيرة صغيرة طيبة المناخ فلم يجد ما يدعوه إلى بذل جهده فبقي الجميع من جراء ذلك في الوحشية الأولى.

ونجمل ما مر فنقول: إن التنازع على البقاء يبدو لنا أبدياً سرمدياً في تاريخ البشر، ومهما كانت شدته فإنه مفعم بالنتائج النافعة. وإن أقدم

أشكاله وأوضحها وأكثرها طبيعية الحرب، فبها ظهر في الجماعات القديمة – عندما كان معظم العالم في البربرية – ثم لم تبد المنازعات الصناعية أو التجارية إلا بعد أن ترقت التجارة والصناعة.

ولقد مر على الإنسان كثير من القرون في مكافحات دائمة بالسلاح فرقت فيه غرائز الافتراس الطبيعية الأولى، ثم جاء بريق طلاء المدنية الحاضرة فجعل يخفي هذه الغرائز أحياناً ولكن هذا الطلاء قليل الثبات سهل الزوال، وها هي باريس البديعة المتنخلة لم تخل أيام انقلاباتنا من شهود أفعال وحشية لا تقل فظاعة عن مذابح أعرق العصور في البربرية.

إن شدة القسوة التي في الطفل تظهر لنا قرارة طبيعتنا، وهي في تلك السن التي لا نعرف فيها إخفاء عواطفنا. وإن ما نستطيبه من شهود مقاتلة الثيران ومباشرة الصيد والقنص يشهد بوجود استعدادات غريزية قواها مرور الزمن، فلا تستطيع ويلات الحروب الحديثة تخفيف أمرها.

ولا يمكن أن يخفف عواطف الافتراس الطبيعية – المستقرة في الإنسان رهينة الظهور عند سنوح الفرصة – إلا مشاعر الحنان وحسن الرعاية والعطف وهي مشاعر ترمي المدنية إلى ترقيتها في الناس شيئاً فشيئاً. ولقد كنا نغتبط بذلك إذا اقتصرت نتائج أمره على إرضاء ميولنا الإنسانية، ولكن كثيراً من الفلاسفة يتساءلون عما عسى تحدثه ترقية عواطف الحنان من المتاعب لأعقابنا، وما يمكن أن تلحقه برقي المدنية من الضرر.

يقول بعض المفكرين أن التنازع على البقاء لما كان لا يختص بالعيش والتناسل إلا الأذكياء والأقوياء وأهل التدبير فهو إذن من محسنات نوعنا

يحسنه على توالي القرون. والحنان الحالي ضده، لأن من يحميهم وينقذهم ويطعمهم إنما هم أهل العاهات والحمقى وقصار النظر والعجزة و من إليهم ممن لا قيمة له في المجتمع. فلو لم يكن في الأمر إلا صيانة وجودهم الذي لا فائدة منه لما توجه عليه اعتراض، أما وهو بحمايته لهم بيسر لهم النسل والتعقيب فقد تتخلد وتتضاعف عناصر الانحطاط والقهقرى والضعف في الأمة. و بديهي إننا لم نصر إلى ما نحن عليه اليوم لو كانت الأجناس الضعيفة لم تذهب فيما مضي أمام الأجناس القوية التي قست وجدت في تنظيف الطريق الذي تتقدم فيه اليوم بخطى واسعة.

تأثير أهلية الشعوب للتغيير

لابد – في قدرة أي شعب على التقدم – من أن يكون قادراً على تغيير ما بنفسه، فلا رفعة على درج الحضارة إلا بشرط الحصول تدريجاً على صفات جديدة، وهذا هو المقصود من التغيير.

وإذا كان التغيير روح التقدم فالثبات على حال ما لا يقل عنه لزوماً. إذ الشعب الذي يريد الخروج من البربرية والارتفاع في سلم الحضارة ينبغي له أولاً أن ينجح في إخضاع نفسه لقوانين ثابتة، ومن هذا يتضح أن الشرط الأساسي لرقي حضارة الشعب مزدوج – وإن ظهر تناقض هنا في وجوب إحراز الشعب صفتين متضادتين في أفكاره ونظمه وخلقه – ونعني بالصفتين الثبات والحركة.

ومن أشد المستصعبات إيجاد توازن عدل بين هاتين الصفتين. فالنادر من الشعوب من نجح في تحقيق هذا التوازن، وأندر منه من احتفظ به، لأن

الثبات إذا عظم في وقت ما وقف الشعب في تطوره إلى التقدم كما بالصين، وإذا اشتدت الحركة فقد الشعب كل تماسك وتبعثر، وهذا المصير إنما يدرك الشعوب التي تتغير أنظمتها وحكوماتها بكثرة.

وليست "الأهلية للتغيير والتحول" إلا القدرة على التكيف تبعاً للظروف الخارجية للعيش، والفرد كالشعب يتغير كلما تغيرت ظروف وجوده وكان على علاقة مع عدد كبير من مختلف الأشخاص أو الشعوب.

كانت حياة الأوائل واحدة على وجه التقريب في كل مكان، فالاضطرار إلى التحول وتولد موهبته ظهرا ببطء كثير وفي زمن متأخر. وهناك بعض الشعوب المتوحشة لم تر قط ضرورة تدعوها إلى تغيير طراز عيشها منذ مئات من القرون. ولا غرابة فقد وجدت نفسها على علاقة بشعوب متوحشة مثلها فلم تحتج إلى التغيير نعني إلى التقدم. فطبع روح التقليد فيها على نماذج واحدة فانتهي أمرها جميعها إلى التماثل مادياً وأدبياً. وقد ترى أن المتوحش يأتي بحركة فيقلده فيها صاحبه و يقتدي بهما البقية كما تفعل جماعات القرود.

ولا شك في أن ضرورة التعاون على الدفاع كانت السبب الأول في تثبيت العادات عند الجماعات المتشاركة القديمة، فكان لابد عليها من العمل بعضها مع بعض إذا أراد كل منها تحاشي الفناء منفرداً، أما الجماعات الأولى التي توصلت إلى إيجاد شيء من النظام عندها فقد اكتسبت تفوقاً عظيماً على غيرها، وأهمية هذا النظام هي التي جعلت الجري على العادات غاية في الشدة لأنها هي الأصل في وجوده.

وما اسرع ما ألحقت بالنظام المذكور الفكرة الدينية وتقررت العقوبات الشديدة حتى لا يخالفه أحد، ثم زيدت على قوانين النظام بعد صبغه بالصبغة الدينية قوانين أخرى جديدة، وكان مدارها كلها على طمأنينة الجماعة ورفاهتها. ولم يكن فيها اعتبار للفرد، لأن حياته منفرداً مستحيلة، فطبيعي إذن أن يضحي به في سبيل المنفعة العامة، ومن هنا تتضح لنا قوة العادة. ونفوذ الحكومة في الجماعات القديمة؛ فلقد كان نيرهما طبيعياً لم يستشعره أحد وكانت الحرية الشخصية أمنية بعيدة لم تحلم بها حتى العقول الراقية.

ولقد كان من أمر جمهوريات أثينا التي أراد اتخاذها المتظاهرون بالعطف على الجماهير نموذجاً لأحلامهم الاستقلالية – أن يحاط الأفراد فيها بنطاق من القواعد تعد في نظرنا اليوم كالأغلال؛ فلم تكن هذه الجمهوريات تعترف بالحرية الدينية، لأن المناقشة في قوانين الحكومة تزعزع أساس البناء الاجتماعي؛ ولا بحرية التعليم، لأن الأطفال تربيهم الحكومة لنفسها. وكان الوطنيون في (اسبارطة) لا يجوز لهم اختيار ساعة الطعام ولا صنفه، وكانوا يأكلون جميعاً على موائد واحدة. وكان المجدد المبتدع في جميع الحضارات الأولى كالعدو، يثور الشعب عليه ويطلب قتله ولو كان سقراطاً بعينه.

وتتضح للقارئ ضرورة أمثال هذه النظم للأمم التي يهددها دائماً عدوها الخارجي، لأنها لا تقاوم إلا بفضل النظام القوي الذي يجعل من مجموعها رجلاً واحداً. ولقد هلكت اليونان لأنها لم تستطع أن تعمم نير العادات الموحدة وتوجبها وجوباً على مختلف مدنها.

وفي التاريخ شعب قديم نجح أكثر من سواه في الاحتفاظ بالموازنة بين

الثبات والتغيير، قروناً طويلة، ونعني به الشعب الروماني، فقد كان على احتكاك دائم بالأجانب في فتوحاته فعدل نظمه شيئاً فشيئاً؛ تارة على مقتضى الظروف الجديدة التي يوجده فيها اتساع سلطانه. وطوراً بأخذ النافع عن الأقطار التي يتغلب عليها. غير أن عهد الفتوحات والتغييرات المرقية لم يتح له إلا بعد زمن طويل انقضى في تأسيس حكومته وقوانينه على أسس وطيدة، فلم ترتق موهبة التغيير والتحول في روما إلا بعد أن اكتسبت نظمها ثباتاً عظيماً. وتوازنت من ثم صفتا الثبات والحركة عنده مدة قرنين أو ثلاثة قرون كانت من أزهر ما مر بالشعوب ومن أعظمها رفاهة.

وقلما يجد الإنسان مثل هذه الموازنة في الأزمنة الحاضرة التي تتغير فيها ظروف العيش باكتشافات العلم والصناعة، وسرعة سير الأفكار، والتقريب ما بين الحضارات المختلفة. ولا يخفى أن التغيير يجيء بالانقلابات التي شرعت تتكاثر شيئاً فشيئاً في دنيانا القديمة.

والشعب الأوربي الذي عرف مزج الثبات بموهبة التغيير – بمثل الدرجة التي كانت للرومان – إنما هو الشعب الانجليزي، فإنه يحسن نظمه منذ قرون بانتظام وبلا اضطراب في الأغلب. ولهذه الموازنة بين التغيير والثبات يرجع معظم الفضل في تكون قوة إنكلترا.

وبناء على ما تقدم نقول: إن المهم لأمة من الأمم إنما هو إحراز عادات على شيء من الصلابة بحيث لا تتغير بسهولة، وعلى شيء من المرونة بحيث يمكن أن تتغير ببطء، والتاريخ ممتلئ بأنقاض الأمم التي هلكت لأنها لم تصل إلى حل هذه المسألة العسيرة.

وتأثير البيئة هو التأثير الذي لا تتخلص منه الشعوب بسهولة إذا ارتبطت بالعادة ورباطها وثيق لتأصلها في النفوس. ولهذا التأثير نفوذ عظيم حتى في عقول أرقى الأشخاص، بحيث تجد جميع حاصل الفن والعلم عند أي شعب مطبوعة بطابع الروح الوطني وبالمميز الخاص للزمن الذي حدث فيه.

وما الفلاسفة والفنيون والكتاب والشعراء إلا تراجمة يعرب كل منهم بلغته الخاصة عن أفكار جنسه وزمنه وعقائدهما وأوهامهما. ولهذا السبب كان للتواليف نفع كبير في تفهم أية مدنية من المدنيات.

أما الشخصية الخاصة – نعني بها قدرة الشخص على مخالفة من يعايشهم، وإطراح نير الرأي العام والعرف – فموهبة من أندر المواهب، وتجدها ظاهرية أكثر منها حقيقية، فالمنكر – الذي يتقدم أهل عصره كثيراً بما يدلي به – لا يصغي إليه أحد في حال حياته. وليس المصير الطبيعي للمجدد والمبدع إلا أن يذهب شهيد تجديده وابتداعه.

ومن الحقائق التي نراها اليوم عادية – الحقيقة التي رآها (غليليه) بشأن حركة الأرض، فقد قوبلت بالإعراض العام عند ظهورها. وعلى هذا فليس لكل عصر من العصور إلا طائفة معينة من الحقائق يستطيع أن يتقبلها، وللزمن وحده القدرة على تغيير الأفكار والمعتقدات.

وكل ما مر بالقارئ من الاعتبارات السابقة المختصرة يدل على مقدار بعد المدنية عن الشعوب المنحطة، المحصورة منذ أجيال في دائرة عادات لم تتغير بحيث صارت مستعصية على التغيير، ويدل من جهة أخرى على سقوط كل أمة أفقدتها الظروف الثبات بزجها في سبل التغير الشديد

القصير الأجل. وعسانا بعد ذلك أن نكون قد بينا قوة الثبات والتحول في نشوء المدنيات. وتقدمها وانحطاطها.

تأثير الأماني والمعتقدات

تخصص الشعوب والأفراد معظم وقتها في الوجود للجري وراء مطمح أعلى ومثل أسمى هو المسمى بقولهم (إيديال) في كثير من لغات الغرب.

ويعد حلم السعادة التي يجده خلفها كل فرد من أقوى العوامل في تطور الحضارات. وهذا الحلم ممكن التحقيق في هذه الدنيا على قول بعضهم، وخاص بالحياة الأخرى على ما يرى آخرون.

وبديهي أن حلم السعادة خير معين للمرء على عمله الشاق، وخير صارف له عن الشعور بقسوة الحظ، وهو عزاء كل فرد منا عما يصيبه لأنه يعزيه – بالتطلع إلى الأمام والتعويل على الغد، فيمني النفس بمجيء الثروة أو المجد – أو نور الحقيقة أو أي سعد من السعود التي نتهالك جميعاً في تأثرها من المهد إلى اللحد. فكلنا يسير ويداه مبسوطتان إلى ذلك الخيال يبغي الوصول إليه فلا يتاح له اللحاق به، وتكون الخاتمة عثوره بحفرة قبره.

وهذا المطمح العام الذي يجتهد على النفس في تحليله، وتفهم ما فيه من روح العناد والإصرار، إنما هو في عرف آخر التحاليل عماد العالم، وصرح التقدم الذي ترفع الإنسانية بنيانه منذ كثير من القرون، بل هو بابل الشماء الشامخة بأنفها على مخرج الصواعق السماوية، ومجرى الغيوم المنذرة.

وما انفك الإنسان الحي من يوم خلق يجاهد ويموت في سبيل مطمحه الأعلى، وسواء كان هذا المطمح سامياً أم وضيعاً، عدائياً أم سامياً، فإنه

شارد أمام الإنسان على الدوام، وليس التاريخ إلا حكاية الجهود التي بذلها الإنسان للوصول إلى مطمح يعبده عبادة ثم يعود فيهدم كيانه وينطلق وراء سواه. ولكم أريقت دماء كالأنهار دفاعاً من أسخف المعتقدات، وكم دك من إمبراطوريات عظمى وأقيم غيرها.

ولقد كان مطمح الشعوب في العصور الأولى منحصرة في الرفاهة المادية، ثم انحصر بعد ذلك في رفعة الجماعات المشتركة وعظمة المدينة والوطن، ثم ثبطت عزيمة العالم أمام الجبروت الروماني ووقت تهديدات البرابرة، فألقي بهذا المطمح إلى الحياة المقبلة. ثم جاءت المسيحية فقالت إنه لا يتحقق إلا في السماء. أما اليوم فالبحث عن تحقيقه إنما هو في الكمال المرجو مستقبلاً للإنسانية، ولذا يضعون هذا المطمح بين الطرفين اللذين ذكرناهما، فيقولون هو فوق متناول كل فرد على حدة ولكنه ميسور للجميع في هذه الدنيا في المستقبل البعيد.

ولا نستطيع حصر المطامح المختلفة التي طمح إليها الناس على تباين العصور إلا بإجمال، كالذي فعلناه به. ولكل شعب بل لكل فرد مطمح خاص به، يتبع ذوقه، وسنه، وذكاءه، وكيفية إدراكه الدنيا والحياة. فالهندوسي المتعصب الذي يلقي بنفسه تحت عجلات مركبة الآلهة، والناسك الذي يقضي حياته أمام فتحة قبره، والجندي الذي يلقى الموت في سبيل نصرة علمه، والشحيح الذي يشتغل الدهر بعد نقوده، والعالم الذي يقضي عمره في البحث عن سر من أسرار الطبيعة؛ كل أولئك إنما يقوده المطمح الأسمى الذي رموا إليه وجعلوه قبلة لهم.

ولا عد لأشكال المطامح كما قلنا، لأن اختلافها كاختلاف النفوس البشرية، فلا مشاركة بين هذه المطامح، إلا أنها عادة من الأماني العديمة الجدوى، ومع هذا فلها السلطان الأعظم على النفوس.

ومن المعتقدات ما يضحكنا اليوم وقد كان بهجة أجيال برمتها من البشر رأت فيه نعمى الحياة، ولا شك في أن أفكارنا الحالية – التي نغتبط بها ونعتبرها من أنفس الحقائق التي جاءت بها انقلاباتنا الخالدة – ستكون عند أعقابنا كالظل الزائل، شأنها في ذلك ما نراه الآن في المعتقدات الساذجة التي ملكت نفوس آباءنا الأولين.

ولا جدال في أن جميع المطامح كالظلال، ولكنها من تلك الظلال الوارفة التي لا تستغنى عنها الإنسانية، فبها تكبر، ومن أجلها تعمل وتحتمل العناء بصدر رحيب.

ويريد التشاؤم الحالي أن يقضي على تلك الخيالات التي يدعوها بالدين والشرف والوطنية وحب المجد. ولكن قوة الأمل كان من شأنها أن جعلت (العدمية) – وهي آخر صور التشاؤم – تلوذ بأشد ما عرف من أشكال الاعتقاد ولغته وعواطفه، وأن يظهر على مذهب (التفكير الحر) مذهب عدم التسامح وهو صفة الغيور الحاد المستمسك بالتقوى. وعلى هذا نقول أن (التوكيد) سيبقى دائماً أعظم إنسانية من (الشك والنفي). ومما يؤخذ على طبيعتنا فيؤلم ويعزي في آن واحد، أن من يشن الغارة على المطمح يخلق لنفسه بفعله هذا مطمحاً آخر، وأن من ينكر السعادة لا ينفك يبحث عنها فيما يظهره من كبرياء، وهو ذاك الظل الزائل الفاني.

إن جميع العظماء – الذين ظهروا في بعض الأوقات بمظهر المسيطرين على مصائر الناس – لم يكن عملهم إلا الأخذ بمطمح جنسهم ووقتهم وحصره والتعبير عنه، وإن أكابر قادة الشعوب لم يقودوا أممهم إلا بأحلامها الخاصة بها، فموسى (عليه السلام) مثل للإسرائيليين شهوة الحرية التي كانت كامنة من سنوات في نفوسهم المستعبدة وتحت جلودهم الممزقة بسياط المصريين، فتم (الخروج) الموموق والخلاص المروم. وبوذا ويسوع (عليه السلام) سمعا صيحات البؤس المتناهي، ولم يخترعا الشفقة اختراعاً، فهي – وإن كانت من العواطف الجديدة عند الإنسانية – فإنما تولدت شيئاً فشيئاً من العطف على ضحايا تلك الآلام التي لا يضمن أحد لنفسه السلامة منها.

أما مُحَمَّد (صلى الله عليه و سلم) فجاء بوحدة المعتقد إلى شعب كان منقسماً إلى آلاف من القبائل المتنابذة، ثم استقى الحماسة من حدة روح جنسه، وأضرمها في صدور العرب، فهبوا إلى افتتاح العالم القديم.

ولم يصر نابليون العبقري رباً للانقلاب الفرنسي إلا لأنه كان رمزاً دالاً عليه، ففيه تمثل ملامح المجد العسكري والدعوة إلى الانقلاب للشعب الذي لبث ينقله في أوروبا خمس عشرة سنة، جرياً وراء أعظم المشروعات في ضروب الحماقة.

وقد كان المطمح الديني والمطمح الوطني أعظم ما عرف عند الذين قادوا العالم فرأينا المطمحين في الزمن الغابر دائماً مجتمعين فكانت قوة تأثيرها فريدة في بابها، تمحي أمامها المطامع الشخصية للفرد ويبقى الخير

العام وحده، فيعمل كل وطني ويقاتل ويعيش ويموت في سبيل المجد وآلهة المدينة، وها هي روما المثل على ذلك فقد عبدت نفسها أكثر من سبعة قرون وملأت بهذه العبادة قلوب أبنائها، ولم تكن لديانتهم من أربطة ووحدة وحقيقة إلا لأن الضحايا والاحتفالات كانت ترمي جميعاً إلى رفعة روما ورفاهتها، بل لقد كانت الميول العائلية تزول أمام العاطفة العامة. فبروتوس الأول قتل أولاده، و(بروتوس) الثاني قتل من اتخذه ولداً. لأنهما اعتقدا أن مصلحة روما تقضي بإهراق هذا الدم. وما استولى على نفوس البشر شيء مثل المطمح الأعلى في قوته واستغراقه كل ما عداه وبعث صاحبه على القيام ببذل أعظم الجهود.

ويعد الشعب الانجليزي الحالي بخلقه من أشبه الناس بالروماني، فإخلاصه الشديد الساذج لأمرائه وأسرته الحاكمة حافظة الوطن وممثلته – يكاد يكون كدينية الوطني الروماني. ولا خلاف في أن الانحطاط يسرع إلى الأمة التي لا مطمح لها، لأن المطمح – مهما قل شأنه – رابطة بين جهودها المتعددة، توجه بها إلى جهة واحدة.

وبعد جميع ما تقدم نقول: إن للأفكار القول الفصل في قيادة العالم، فهي تنشأ في البدء نشوءاً غامضاً، وتبقى في غموضها رهن التحول البطيء إلى اليوم الذي تظهر فيه بظهور رجل عظيم، أو حادث كبير. وليس المهم في قوة تأثيرها أن تكون من الحقائق، فقد دلنا التاريخ على أن أكبر الأوهام الفارغة اجتذب الناس أكثر مما اجتذبتهم الحقائق المؤيدة بالبراهين. ولا عجب فأكبر الأوهام محبب إلى التصور والعواطف وهما أهم نوابض الكيان البشري، وغرور السعادة الذي يتراءى لنا بكل طريق في أشكال

مختلفة – هو الذي يجذبنا جذباً لا تستطاع مقاومته. وهذا الغرور المعزى السريع الزوال عاشت الإنسانية إلى الآن وستمضي في عيشها معه أيضاً، فهو إذن من الخيالات الواجبة الحرمة، به عرف أوائلنا الأمل فأمعنوا في سيرهم وأخرجونا من البربرية الأولى إلى ما نحن عليه الآن، ولذا عددناه أقوى عامل في ترقي الحضارات. لا بل نقول أيضاً: أنه السبب في إقامة الأهرام بمصر، والاستكثار في أرضها من العمد، والمضي في هذا الشأن مدة خمسين قرناً كاملة. ولسبب مثل هذا أقيمت في أوربا الكاتدرائيات العظمي في العصور الوسطى، وأغرى الغرب بالانقضاض على الشرق ليستولى على قبر، وأقيمت إمبراطوريات وأسقطت أخرى.

إن الإنسانية لم تنفق من الجهود في تأثر الحق إلا أقل مما أنفقته في سبيل الباطل. ثم هي لا تستطيع إدراك ما تجد وراءه من الأماني. ولكنها بهذا الجد أحرزت كافة صنوف الرقي التي لم تكن في حسبانها.

غوستاف لوبون ومؤلفاته

الدكتور غوستاف لوبون طبيب واجتماعي فرنسي، وقف نفسه على خدمة العلم وتقرير حقائقه؛ حتى تجاوز الثمانين من سني حياته. ولد في بلدة نوجان لي رترو عام ١٨٤١. وتولى في حرب السبعين رئاسة أطباء فرقة من فرق النقالات العسكرية المتحركة.

وفي سنة ١٨٨٤ سافر إلى الهند مكلفاً من الحكومة بمهمة درس هندسة الآثار البوذية، وساح في أقطار أخرى منها هذا الشرق العربي وإلى القارئ أسماء أهم ما وصل إلى علمنا من مؤلفاته:

حضارة العرب	**La civilisation des Arabes**
الحضارات الأولى	**Les premières civilizations**
حضارات الهند	**Les civilisations de l'Inde**
آثار الهند	**Les monuments de l'Inde**
رحلة الى جبال تراس	**Voyage aux monts Tatras**
رحلة الى نيبال	**Voyage au Népal**
الثورة الفرنسية وروح الثورات	**La révolution Française et la psychologie des révolutions**

Premières conséquences de la guerre	النتائج الأولى للحرب
Enseignements psychologiques de la guerre Européenne	التعاليم النفسية للحرب الأوربية
L'homme et les sociétés	الإنسان والمجتمعات
Lois psychologiques de l'évolution des peuples	سر تطور الأمم
Psychologie des foules	روح الاجتماع
Psychologie du socialisme	روح الاشتراكية
Psychologie de politique	روح السياسة
Psychologie de l'Éducation	روح التربية
Aphorismes du temps présent	جوامع الكلم العصرية
Hler et demain	أمس وغداً
La vie des vérités	حياة الحقائق
La fumée du tabac	دخان التبغ "بحث كيماوي"
Recherches anatomiques et mathématiques sur les los des variations du volume du crane	أبحاث تشريحية ورياضية في سنن تطور حجم الجمجمة
La méthode graphique et les apparells enregistreurs	أسلوب التخطيط والآلات المدونة
Les levers photographiques	التخطيط الفوتوغرافي

L'équitation actuelle et ses principes	الفروسية الحاضرة وأصولها
Memoires de physique	مذكرات في الطبيعة
L'Évoluition de la matière	تطور المادة
L'évolution des forces	تطور القوى
La mort apparente	الموت الظاهري والدفن قبل أوانه
La mort apparente	فسيولوجيا جيل البشر وأهم الكائنات الحية
Traité pratique des maladies génito - urinalres	بحث عملي في الامراض التناسلية والبولية
Hygiene pratique du soldat et des blessés	علم الصحة العملي للجندي والجرحى
La vie, physiolagle Humaine	الحياة فسيولوجية بشرية

الفهرس

الكتاب الثاني

كيف ترقى الأمم إلى الحضارة؟